الفصل الثاني
الدروس والعبر المستفادة من المرحلة الثانية من غزوة أُحُد (المعركة)
المبحث الأول
الدروس العقائدية

١ ـ طبيعة الصف الإسلامي في أحد:

يقول د/ الغضبان: «لابد لنا من وقفة مستأنية لدراسة طبيعة الصف الإسلامي، وتركيبه قبيل غزوة أحد، ومن خلال المقارنة مع طبيعة الصف الإسلامي قبيل غزوة بدر، تتضح معالم هذا الصف أكثر وأكثر.

لقد رأينا رسول الله ﷺ قبيل بدر، ولم يعد الإعداد المادي الكافي للمواجهة؛ إذ أن خروج الجيش الإسلامي كان لمواجهة قافلة يقودها سبعون شخصًا، ولم يكن خروجه لمواجهة جيش قوامه ألف رجل، ومع هذا كله، وبعد الاستشارات العديدة التي أقدم عليها رسول الله ﷺ في مبدأ المواجهة مع العدو، وخص الأنصار بالذكر والرأي، وحيث أجمعت القيادات الكبرى بعد التردد النفسي البشري خوف المواجهة، على لقاء العدو، كان ذلك التوجه النبوي العظيم إلى الله رب العرش العظيم بطلب النصر.

صحيح أن العدة المادية لم تكن كاملة ولم تكن كافية، والكثير من المسلمين في المدينة، وفيهم قيادات عظيمة كان يمكن أن تكون في الصف لو عرفوا أن رسول الله ﷺ يَلقى حربًا، لكن النبي ﷺ مطمئن إلى الإعداد المعنوي، مطمئن إلى سلامة صفه كله، فليس منهم شخص دون المستوى الإيماني المطلوب، رغم قصر مدة التربية النبوية، التي لم تبلغ لبعضهم سنتين فقط، رغم هذا كله فهو مطمئن إلى أن النماذج التي معه في بدر هي خيرة أهل الأرض، وهذا هو أعظم إعداد في البناء، كان التوجه النبوي الكريم إلى رب العزة والجلال أن يُنزل نصره، وكان ذلك الإلحاح الشديد في التذلل والتضرع إلى الله أن ينجز وعده حتى ليسقط رداؤه الشريف عن منكبيه، وهو لا يشعر من عظمة التوجه إلى الله تعالى بتحقيق موعوده بالنصر، ولا أدل على ثقته بهذا الصف من صيغة دعائه ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةُ اليَوْمَ لَا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ**».

فهذه العصابة عنده هي خيرة أهل الأرض، وهي المنوط بها الخلافة الراشدة فيها.

لكننا نجد في أُحُد صورة معاكسة تمامًا، ورغم مظاهر الحماس الطاغي من الشباب للمواجهة، ومن الشيوخ الكبار، خاصة الذين لم يُتح لهم أن يشهدوا بدرًا، فقد كانت نظرته ﷺ لهذا الصف تختلف كثيرًا عن نظرته لصف بدر.

لقد انضم إلى الصف الإسلامي ثلاثة أضعاف أو ضعفين على أقل تقدير خلال عام واحد، وهذا العام لم يكن كافيًا لإتمام التدريب والتربية؛ لرفع هذه الأعداد الجديدة إلى المستوى الإيماني المطلوب والموجود عند السابقين الأولين، ورغم أن الإعداد لم ينقطع خلال هذا العام من خلال الغزوات المستمرة للعدو، والسرايا العظيمة من الرجالات الكبار القدوة، رغم هذا كله لم يكن الصف بعد قد غدا مؤهلًا لمثل هذه المواجهة، ولم نجد هذا الإلحاح الشديد على رب العزة والجلال في إنزال نصره؛ لأن الإعداد المعنوي في الصف لا يزال دون المستوى المطلوب للمواجهة، ولا نتحدث هنا عن المنافقين إنما نتحدث عن ضعاف الإيمان داخل الصف الإسلامي الواحد.

وإن القائد العادي الذي يرى هؤلاء الجنود ليدرك بثاقب نظره تخلخل المستويات الإيمانية، وضعف بعض النماذج داخل الصف، فكيف بسيد الخلق، وسيد القادة، وسيد العباقرة في الوجود لا يدرك أبعاد هذا الصف، ونوعياته، ومستوياته؛ ولهذا كله كان جواب رسول الله ﷺ، ليس إلحاحًا في التضرع بإنزال النصر بمقدار ما كان تقريرًا يتناسب مع واقع الصف الجديد: «**وَلَكُمْ النَّصْرُ مَا صَبَرْتُمْ**».

وهذا ما يقرره القرآن الكريم ابتداءً: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران].

ولم يصبروا ويتقوا ـ أي كل الصف بكل أفراده ـ فلم يأت الخمسة آلاف من الملائكة، وكل الذي ورد عن نزول الملائكة في نص صحيح، وما ورد على لسان سعد ﷺ عن نزول جبريل وميكائيل، لحماية رسول الله ﷺ، عندما استفرد وحده من العدو كما يقول سعد ﷺ: «**رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، وَمَعَهُ رَجُلَانِ يُقَاتِلَانِ عَنْهُ، عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ، كَأَشَدِّ القِتَالِ، مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ وَلَا بَعْدُ**».

[البخاري في المغازي (٤٠٥٤)].

وقد نزل القرآن الكريم بعد الغزوة يعالج طبيعة هذا الصف.

ولابد من إيضاح كذلك في هذا الصدد: أن هذه المعالجة كانت منصبة على السبعمائة الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ، أما الحديث عن المنافقين، فكان صريحًا عنهم بأسمائهم ومواقفهم، بينما يأتي التعبير القرآني ليصف الصف المسلم نفسه: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢].

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

أما الحديث عن المنافقين، فكان يأتي:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۖ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [آل عمران].

وكل ما فعله ﷺ أمام هذا الجيش الذي عرف نوعياته، وفَقِه مستوياته: أن خَطَب تلك الخطبة العظيمة التي تحث على الجهاد، وتوضح العديد من الأسس والقواعد الإيمانية التي قد تغيب عن الذهن أثناء المعركة، وأيضًا ترد الجنود إلى أصل القضية وهدف الجهاد، والتي تسوق العديد من الأحكام الشرعية التي تترى كل يوم من رب العالمين:

(١) فمناط الأمر كله هو طاعة الله ورسوله، والبعد عن معصيته: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أُوصِيكُمْ بِمَا أَوْصَانِي اللهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ العَمَلِ بِطَاعَتِهِ وَالتَّنَاهِي عَنْ مَحَارِمِهِ**».

(٢) ولابد من الإيضاح لطبيعة هذه الحرب، فقد انتهت حروب الذِّكر والشُّهرة والصِّيت، حروب العصبية والقبلية المنتنة، إنها بدء مرحلة جديدة لحرب جديدة قوامها الإيمان والكفر، وهدفها الحرص على مرضاة الله، وما أعد الله للمؤمنين في الجنان، وكثير من النماذج داخل هذا الصف، لم تتبلور القضية في نفوسهم بعد، خلال هذه الأشهر القليلة «**ثُمَّ إِنَّكُمْ اليَوْمَ بِمَنْزِلِ أَجْرٍ وَذُخْرٍ لِمَنْ ذَكَرَ الَّذِي عَلَيْهِ، ثُمَّ وَطَّنَ نَفْسَهُ لَهُ عَلَى الصَّبْرِ وَاليَقِينِ، وَالجِدِّ وَالنَّشَاطِ، فَإِنَّ جِهَادَ العَدُوِّ شَدِيدٌ، شَدِيدٌ كَرْبُهُ، قَلِيلٌ مَنْ يَصْبِرُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ عَزَمَ اللهُ رُشْدَهُ، فَإِنَّ اللهَ مَعَ مَنْ أَطَاعَهُ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ مَنْ عَصَاهُ، فَافْتَتِحُوا أَعْمَالَكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى الجِهَادِ، وَالتَمِسُوا بِذَلِكَ مَا وَعَدَكُمْ اللهُ**».

(٣) «**وَالتَمِسُوا بِذَلِكَ مَا وَعَدَكُمْ اللهُ**» التماس الأجر من الله في مفهومه الحقيقي يختلف عما يظنه كثير من الناس الذين يحددونه في سعة الرزق وقوة الصحة وعلو المكان من الله: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الفجر].

والنبي ﷺ هنا يرد الإنسان للمفهوم الصحيح لالتماس الأجر وهو «**مَا وَعَدَكُمْ اللهُ**»، وقد أوضح الصحابي الجليل ربعي بن عامر ﷺ لرستم قائد الفرس في معركة القادسية سنة ١٣ هـ معنى موعود الله حينما قال لرستم: «**اللهُ ابْتَعَثْنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سِعَتِهَا،**

وَمِنْ جَوْرِ الْأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الْإِسْلَامِ، فَأَرْسَلَنَا بِدِينِهِ إِلَى خَلْقِهِ لِنَدْعُوَهُمْ إِلَيْهِ، فَمَنْ قَبِلَ ذَلِكَ قَبِلْنَا مِنْهُ وَرَجَعْنَا عَنْهُ، وَمَنْ أَبَى قَاتَلْنَاهُ أَبَدًا حَتَّى نُفْضِيَ إِلَى مَوْعُودِ الله، قَالُوا: وَمَا مَوْعُودُ الله؟ قَالَ: الْجَنَّةُ لِمَنْ مَاتَ عَلَى قِتَالِ مَنْ أَبَى، وَالظَّفَرُ لِمَنْ بَقِيَ». [البداية والنهاية ط هجر ٩/ ٦٢٢].

إذن فالتماس الأجر من الله لا يُقاس بالأمور المادية من نصر أو هزيمة، وقد قال الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«مَا مِنْ غَازِيَةٍ أَوْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فَتَغْنَمُ وَتَسْلَمُ، إِلَّا كَانُوا قَدْ تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أُجُورِهِمْ، وَمَا مِنْ غَازِيَةٍ أَوْ سَرِيَّةٍ تُخْفِقُ وَتُصَابُ، إِلَّا تَمَّ أُجُورُهُمْ»**. [مسلم في الإمارة (١٩٠١٦)].

فالأصل في الجهاد ـ بالسيف أو بالكلمة ـ ليس الحصول على النصر أو الغنيمة ولكن الأصل هو رفع كلمة الله كيف كانت النتيجة التي تحققت، فأحيانًا عدم النصر في المعركة ـ في نظر الناس ـ يُعد رفعًا لكلمة الله.

وعَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: **الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ**، (وفي رواية: **الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً**) **فَمَنْ فِي سَبِيلِ الله؟** قَالَ ﷺ: **«مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله»**. [البخاري في العلم (١٢٣)، وفي الجهاد والسير (٢٨١٠)، وفي فرض الخمس (٣١٢٦)، وفي التوحيد (٧٤٥٨)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، وأبو داود في الجهاد (٢٥١٧)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٦)، والنسائي في الجهاد (٣١٣٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٣)، وأحمد عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه (١٨٩٩٩، ١٩٠٩٩، ١٩١٣٤، ١٩٢٤٠، ١٩٢٤١)].

(٤) والقضية ليست قضية الجهاد فقط، وإخلاص النية في قلب المعركة، إنما الجهاد حلقة من سلسلة مستمرة من الطاعات، أو حلقة من سلسلة مستمرة من المعاصي: **«وَعَلَيْكُمْ بِالَّذِي أَمَرَكُمْ بِهِ، فَإِنِّي حَرِيصٌ عَلَى رُشْدِكُمْ، فَإِنَّ الاخْتِلافَ وَالتَّنَازُعَ وَالتَّثْبِيطَ مِنْ أَمْرِ العَجْزِ وَالضَّعْفِ مِمَّا لا يُحِبُّ الله، وَلا يُعْطِي عَلَيْهِ النَّصْرَ وَلا الظَّفَرَ»**.

وكأنه كان ﷺ يرى النتائج المرة رأي العين، حين يأتي الاجتهاد الشخصي مكان الأمر النبوي، ويقع الاختلاف والتنازع، ويُحال بين الجيش والنصر، وجاء القرآن الكريم بعد المعركة ليقول لهؤلاء السبعمائة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

(٥) وها هو ﷺ يَذكر أحكامًا شرعية بعينها، يُعلِّمها هذا الجيل، فهو يدخل إلى أعماقه ليقول له في معركة الضمير قبل معركة السلاح: إن الذي يُبيِّت غير الطاعة فالله ـ تعالى ـ سيكشفه، فليؤوب إلى ربه قبل أن يفضح.

(أ) «يَا أَيُّهَا النَّاسُ جُدِّدَ فِي صَدْرِي أَنَّ مَنْ كَانَ عَلَى حَرَامٍ فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَمَنْ رَغِبَ لَهُ عَنْهُ غَفَرَ اللهُ ذَنْبَهُ».

(ب) وصِلَةُ الجيش بقائده ونبيه صلةُ روح وحب وتفان وتضحية: «وَمَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَمَلائِكَتُهُ عَشْرًا»، إنها الصلاة التي تربط هؤلاء المؤمنين بالقلب المحرِّك لهم، الذي مَنَّ به عليهم: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران].

(ج) والله تعالى يُثيب على الإحسان، ويُعاقب على المعصية، والذين هم داخل الجيش ووقفوا مع الصف الإسلامي، ولم يعتنقوا عقيدته، فسيأخذون أجرهم في دنياهم، أمثال قزمان وغيره: «وَمَنْ أَحْسَنَ مِنْ مُسْلِمٍ أَوْ كَافِرٍ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ فِي عَاجِلِ دُنْيَاهُ أَوْ آجِلِ آخِرَتِهِ».

(د) وأهم مَعلم من معالم التربية العامة لهذا الصف المسلم هو: يوم الجمعة حيث يخطب ﷺ في المسلمين، يُبلغهم أوامر ربهم، ويصوغهم على هدى الله، والذين تخلوا عن الجمعة فاتهم خير كبير، ولم يعد الأمر في الخيار بل على سبيل الوجوب والفرض: «وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَعَلَيْهِ الْجُمُعَةُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إلاَّ صَبِيًّا أَوْ امْرَأَةً أَوْ مَرِيضًا أَوْ عَبْدًا مَمْلُوكًا، وَمَنْ اسْتَغْنَى عَنْهَا اسْتَغْنَى اللهُ عَنْهُ، وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ».

(هـ) وها هو ﷺ: كأنه في خطبة مودِّع، فقد أدى الأمانة، وبلغ الرسالة: «مَا أَعْلَمُ مِنْ عَمَلٍ يُقَرِّبُكُمْ إِلَى اللهِ إلاَّ وَقَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلا أَعْلَمُ مِنْ عَمَلٍ يُقَرِّبُكُمْ إِلَى النَّارِ إلاَّ وَقَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ».

(و) وأخطر قضية قبيل المعركة يجب أن يفقهها الجيل المجاهد هي: أن الأعمار والأرزاق بيد الله، ولن تُقدِّم الحرب أو المعركة أو تؤخِّر شيئًا فيها، ففيم يكون الجبن؟! فالموت لا يأتي إلا بقدر محدد، ولو كان المقاتل على فراشه: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

والمغانم التي تتشوق بعض النفوس لها بعد النصر، لن تُطلب بمعصية الله، ومعصية أوامره: «وَإِنَّهُ قَدْ نَفَثَ فِي رُوعِي الرُّوحُ الأَمِينُ، أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوْفِي أَقْصَى رِزْقِهَا، لا يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ وَأَجْمِلُوا فِي طَلَبِ الرِّزْقِ، وَلا يَحْمِلَنَّكُمْ اسْتِبْطَاؤُهُ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ رَبِّكُمْ، فَإِنَّهُ لا يُقْدَرُ عَلَى مَا عِنْدَهُ إلاَّ بِطَاعَتِهِ».

(ز) ويبقى القلب المؤمن الحي هو الميزان الحساس في الحلال والحرام، بعد ما بيَّنها الله في كتابه وعلى لسان رسوله، وذلك في الشبهات بين الحلال والحرام: «قَدْ بَيَّنَ لَكُمْ الحَلالَ وَالحَرَامَ غَيْرَ أَنَّ بَيْنَهُمَا شَبَهًا مِنْ الأَمْرِ لَمْ يَعْلَمْهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ إلاَّ مَنْ عَصَمَ، فَمَنْ تَرَكَهَا حَفِظَ عِرْضَهُ وَدِينَهُ، وَمَنْ وَقَعَ فِيهَا كَانَ كَالرَّاعِي إِلَى جَنْبِ الحِمَى أَوْشَكَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ، وَلَيْسَ مَلِكٌ إلاَّ وَلَهُ حِمًى، أَلا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ».

وها نحن نجد هذه المعاني التي وردت في الخطبة النبوية التربوية قبيل المعركة، قد جاء القرآن بعد المعركة ليحاسب الصف الإسلامي على ضوئها جميعًا، ومدى التزامه بها من عدم التزامه».

[التربية القيادية للغضبان ٣/ ١٦٠-١٦٥، مفاهيم تربوية من غزوة أُحد لعبَّاد ٦٥-٦٨].

٢ ـ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا:

يقول د/ فيض الله: «استعرض النبي ﷺ جيشه، وتفقد اصطفاف الصحابة، فلما سوَّاهم صفوفًا، قام فيها فخطب، حاثًّا على الصبر والثبات، وكان فيما قال ﷺ: «**إِنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فِي رَوْعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلا يَحْمِلَنَّ أَحَدَكُمْ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيَةِ الله، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلا بِطَاعَتِهِ**».

[صحيح: رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي أمامة ﷺ ـ صحيح الجامع الصغير: ٢٠٨٥].

ويقول ﷺ: «**لا تَسْتَبْطِؤُوا الرِّزْقَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَبْدٌ لِيَمُوتَ حَتَّى يَبْلُغَهُ آخِرُ رِزْقٍ هُوَ لَهُ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، أَخْذِ الحَلالِ، وَتَرْكِ الحَرَامِ**».

[صحيح: رواه الحاكم في المستدرك والبيهقي في الشعب عن جابر ﷺ ـ صحيح الجامع الصغير: ٧٣٢٣].

ولقد يعجب المرء من هذه التوصية، في ساحة الحرب، والموت يطلُّ على الرجال، ولقد يكون لهذه التوصية وَقْعها في السلم، والنفوس تَشْرَئِبُّ إلى المال، وتتطلع إلى المادة، أما في أهوال الحروب، وصلصلة السلاح، فقد تبدو أمامها علامات الاستفهام.

غير أن المؤمن البصير، المطمئن إلى رجاحة عقل الرسول ﷺ وأنه يتصرف بأمر الله، ووحي من لدنه، لا يتشكك في أن الباعث على هذه التوصية في هذا المقام، وهو التحذير من شغل القلب للسلب، وتعلق النفوس بالمغانم، وأن ذلك لا يقدم ولا يؤخر في اكتساب الرزق المقدور، بل قد يجر إلى الخسارة والوبال، والخروج عن التقوى، فليكن طلب المال في غير معصية الله، ومخالفة الرسول القائد، وفي رفق رقيق، لا تجاوز فيه ولا سرف.

وقد صدَّقت أحداث معركة أُحُد هذه التوصية، إذ كان النصر في جانب المسلمين، فلما خولفت تعليمات رسول الله ﷺ التي أصدرها إلى الدريئة، فرامت مكانها الذي أُمرت بالتلبث فيه مهما يكن من الأمر؛ لتشارك في حيازة الغنائم، كرَّ عليهم المشركون من خلفهم، وأهووا عليهم بسيوفهم ونبالهم، وهم راكعون في جمع الأسلاب والحطام، فأسقط في أيديهم، ووقعا بين فكي الرحى، واستشهد الكثير، وجرح الأكثر، حتى الرسول ﷺ.

الدماء الذكية، والأرواح البريئة، تعجل إليها الموت، واستلب النصر، ومني المسلمون بأفجع المصائب، لمخالفة غير مقصودة لأمر القائد، كان سببها البعيد تعلق القلب بالمادة وشغله بها، والتوسع بعض الشيء في طلبها، وقد كانت الوصية بالإجمال في الطلب.

إن التعلق بالمادة، جرَّ ـ ولو عن غير قصد ـ إلى مخالفة أمر القائد الرسول ﷺ، فقُلِب الموضوع، وغيَّر وجه المعركة، ومسَّ الجيش كله، بعذاب أليم، وسوء منقلب.

فصدق الرسول ﷺ في قوله: «**حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ**». [رواه البيهقي في شعب الإيمان عن الحسن مرسلًا ـ وقال عنه الشيخ الألباني في ضعيف الجامع الصغير رقم ٢٦٨٢: ضعيف، وفي الضعيفة رقم ١٢٢٦: موضوع].

وصدق الله تعالى في قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور]». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١١٨-١١٩].

٣ ـ العقيدة باقية، والدعوة خالدة، ولو مات الدعاة:

يقول د/ فيض الله: «أنكر الله تعالى على المسلمين، ذلك القنوط الذي أخذهم في المعركة، لـمَّا أُشيع مقتل محمد ﷺ، والذهول الذي منوا به تلقاءه، حتى كأنهم ظنوا أنه لا فائدة من القتال بعد موته، ولا معنى للجهاد بعد فَقْدِه، فكأن الدعوة انتهت، ومات الدين بموت رسوله، ونسوا الحقيقة الواضحة اليسيرة، وهي أن العقيدة باقية، والدعوة خالدة، ولو مات الدعاة، والدعوة قبل الداعية وجودًا، وباقية بعد موته، ووظيفة الداعية تبليغها الناس، وغرسها في الضمائر، وتقريرها في العقول، فإذا مات الداعية، بقي تصور الدعوة حيًّا قائمًا راسخًا، لا يناله الموت بسوء.

إن محمدًا ﷺ رسول، أدى رسالته في درب الرسل عبر التاريخ، وقد مات الرسل، ولابد أن يموت محمد ﷺ، لكن الدعوة إلى الله والحق ونظام الله في هذه الأرض، بقيت بعد موت الرسل، وهي باقية بعد موت رسول الله ﷺ.

لا تموت الأفكار، بل تموت رجالها، والأفكار صائرة إلى الخلود، والناس يصيرون إلى فناء، فالدعوة أبقى من الدعاة.

ولهذا عتب الله على المسلمين، لما ركنوا إلى ما يشبه القنوط والقعود عن الجهاد، واعتبره كالارتداد عن العقيدة، التي هي حركة وجهاد، وليست جمودًا وقعودًا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران].

وكأن الله تعالى يُعِدُّ بهذا اللفت إلى الحقيقة، أولئك المسلمين ـ المتعلقين بحب الرسول ﷺ وبشخصه، والذين رأينا استماتتهم في الدفاع عنه، في هذه الغزوة ـ للمفاجأة الكبرى، حين يموت الرسول ﷺ ـ فعلًا ـ كيلا يستبد بهم الهَوْل ووقع المصيبة، فلا يؤاخذوا ولا يذهلوا، ولا تطيش أحلامهم، ولا يفقدوا السيطرة على أنفسهم.

وربما كان الصدِّيق ﷺ من أعظم الصحابة تمثلًا لهذه الحقيقة، وانتفاعًا بهذا التوجيه الإلهي السديد، والإعداد الرشيد، فهو الذي قال قولته الخالدة ـ عندما توفى رسول الله ﷺ ـ وتهدَّد عمر ﷺ بسيفه

المشهور كل من يجرؤ على نعيه: «**مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهُ، فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لا يَمُوتُ**».

وهكذا فصلت العقيدة الإسلامية ـ بحق ـ بين الدعوة وبين الداعي، فالدعوة باقية خالدة، والدعاة ميتون، مستميتون في سبيلها، وأمنية المتأخرين من الدعاة، أن يلحقوا بالسابقين، على درب الدعوة الطويل نفسه، دونما تغير في الدعوة، أو انحراف عن مقاصدها، أو تبديل في معالمها، أو ادِّخار أي وسع في إنجاحها.

فمن هنا قال أنس بن النضر ﷺ للذين رآهم، قعدوا بعد إشاعة قتل النبي ﷺ، مستسلمين للأمر الواقع، والإشاعة المرجفة المغرضة: «**فَمَا تَصْنَعُونَ بِالحَيَاةِ بَعْدَهُ؟ قُومُوا فَمُوتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ**». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٢٥-١٢٦].

وتقول د/ هيام فرحات: «نزلت الآيات تعالج الخطأ الذي وقع فيه بعض الصحابة ﷺ من انهزام وتقهقر فور سماعهم الإشاعة التي روجت في المعركة بمقتل النبي ﷺ، فبينت لهم أنه يجب الثبات على العقيدة والحق، حتى وإن قُتل محمد ﷺ، فهو كسائر البشر غير مخلد، وستأتيه المنية، وكان هذا العلاج الرباني الشافي للصحابة ﷺ وغيرهم من التابعين والخلف؛ ليسيروا على هديه ونهجه، والمتأمل في التاريخ يجد أن مسيرة الإسلام العظيم الخالدة باقية على مر العصور، وأن الله تعالى قد خص أناسًا للذود والدفاع عن دينه، فهم يستمدون القوة والثبات من تلك الدروس والعبر التي وجهها لنا المنهج الرباني، فنجد الكثير من القادة والعظماء يضحون بأرواحهم من أجل إعلاء راية الحق، وعلى سبيل المثال لا الحصر الإمام الشهيد حسن البنا يستشهد في سبيل إعلاء كلمة الحق على يد الطواغيت، ولم تنته حركته بموته، بل استمرت تشق طريقها سريعًا وسط الخطب والصعاب، فمسيرة الجهاد والمقاومة، وضريبة الدماء الزكية باقية لقيام الساعة، والنصر قادم بعز عزيز أو بل ذليل».

[المنهج القرآني في علاج أخطاء المؤمنين في العهد النبوي لفرحات ٧٧-٨١].

٤ ـ التزيُّد العاطفي في حب النبي ﷺ لا يدخل في معالم منهج الرسالة:

يقول الشيخ عرجون: «هذه هي الصورة المجملة للرسالات الإلهية، فإذا التزم أتباعهم بها كانوا خير جماعة أُخرجت للناس، وإذا انحرفوا عنها كانوا بمعرض العقوبة من الله تعالى ليردهم إلى ساحة صدق الإيمان ونقائه، ويربيهم على التزام المتابعة لما جاءهم به الرسل من الهداية وشرائع العبودية لله وحده دون تزيد أو تنقص ليكونوا أسوة لمن يجيء بعدهم من الأجيال والقرون.

كان موقف الصحابة ﷺ في مبدأ غزوة أُحد موقفًا يغلب عليه الحب العاطفي:

وقد كان موقف أصحاب رسول الله ﷺ من هذا المنهج في غزوة أُحد موقفًا مشوبًا بحب العاطفة التي قادتهم بعيدًا عن مهيعه، وسلكت بهم مسلك المبالغة في الحب العاطفي، مما كان سببًا فيما أصابهم في هذه الغزوة من شدائد الأزمات، وفواجع البلاء التي كان من أشدها أثرًا في عواقب هذه الغزوة أنهم ربطوا إيمانهم وعقيدتهم ودعوتهم إلى الله لإعلاء كلمته بشخص رسول الله ﷺ، إذ لم يكادوا يسمعون صرخة الشيطان بأن محمدًا ﷺ قُتل حتى انفرط عقدهم وتفرَّقوا منهزمين، لا يلوون على شيء من شدة ما أصابهم من المفاجأة والدهش، وقساوة ما نزل على قلوبهم من الغم لسماعهم هذه الكلمة الكاذبة التي كادهم بها الشيطان؛ لينشر الفشل بينهم، ويوهن عزائمهم، ولولا وجود مَنْ ربط الله على قلوبهم فثبتهم ـ من أضراب أنس بن النضر، وسعد بن الربيع، وسعد بن معاذ، ونسيبة بنت كعب المازنية، وأبي طلحة زيد بن سهل النجاري، وطلحة بن عبيد الله، وأبي دجانة ﷺ ـ لكانت العاقبة أوخم وأشنع مما كان؛ لأن هؤلاء الأبطال راسخي الإيمان قالوا للذين أذهلتهم المفاجأة: إذا كان محمد ﷺ قد قُتل فإن رب محمد لم يُقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ﷺ». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٣/ ٦٠٥].

٥ ـ نزلت آية ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ عتابًا للذين أفرطوا في حب النبي ﷺ فظنوا خلوده في هذه الدنيا:

يقول الشيخ عرجون: «وقد تضمن عتاب المؤمنين بهذه الآية وهي التي تلاها أبو بكر ﷺ يوم وفاة النبي ﷺ وسكَّن بها الفتنة وأنفذ بتلاوتها المجتمع المسلم من شر مستطير، وبلاء ساحق أمرين: التزيُّد العاطفي في حب النبي ﷺ بربط بقاء الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيلها ببقاء شخص رسول الله ﷺ مخلدًا، لا يلحقه موت وانتقال من الدنيا إلى دار الخلود.

وهذا هو معنى ما ذكره أبو جعفر الطبري في قولة أبي بكر الصديق ﷺ التي فسَّر بها آية العتاب: إن الربط بين بقاء محمد ﷺ وبين بقاء الدعوة إلى الله والجهاد في سبيلها يتعدَّى حقيقة بشرية محمد ﷺ، فيخرجه في توهم الذين وقفوا موقف الهزة الإيمانية عن كونه بشرًا مثل سائر البشر، يلحقه ما يلحق البشر، ومنها الموت بعد استيفاء الأجل المكتوب له، كما لحق إخوانه المرسلين قبله كما قاله أبو بكر الصدِّيق ﷺ، وهو يسمع مقالة عمر بن الخطاب ﷺ يوم توفي رسول الله ﷺ: **فَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَقَدْ مَاتَ إِلَهُ الَّذِي كَانَ يَعْبُدُهُ** ـ يعني أن استبعاد أو إنكار موت محمد ﷺ تأليه لمحمد ﷺ؛ لأن المتفرد بالأبدية الذي لا يلحقه فناء هو الإله الحق الذي أرسل محمدًا ﷺ برسالة الهدى والنور.

ومثل ذلك ما وقع في غزوة أُحد، فإن بعض المجاهدين المؤمنين لم يكد يسمع الصرخة الفاجرة التي أرجف بها الشيطان بين صفوف المسلمين بأن محمدًا قُتل حتى اضطربت صفوفهم واستولى عليهم

الدَّهَشُ والفزع، واختل نظامهم وذهب تثبُّتهم، ومرج أمرهم، فاختلط صفُّهم بصفوف المشركين، وجعل بعضهم يضرب بعضًا وهم لا يشعرون، ثم ولَّوا الأدبار منهزمين، وتفرَّقوا حتى بلغ بعضهم في فراره المدينة، وبعضهم مكث ثلاثة أيام بعد انتهاء المعركة حتى فاء إلى إخوانهم المسلمين.

وقد وَجَدَ أنسُ بن النضر ﷺ، وهو مُقبل على النبي ﷺ للدفاع عنه بالقتال دونه، وتلقى الضربات عنه بعضًا من الذين استحوذ عليهم الدهش، وغلبتهم المفاجأة، وملكهم الاضطراب النفسي حتى هزَّ إيمانهم جلوسًا يكاد يقتلهم الغم، فقال لهم: **مَا جُلُوسُكُمْ هُنَا؟ قَالُوا: قُتِلَ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَقَالَ لَهُمْ: قُومُوا فَقَاتِلُوا عَلَى مَا قَاتَلَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ ﷺ**.

فكانت هذه المحاورة القصيرة السريعة إيقاظًا لمشاعرهم، وتثبيتًا لقلوبهم، ففاؤوا إلى رسول الله ﷺ، وقاتلوا دونه مدافعين عنه حتى انتهت المعركة؟.

وقد كانت لإصابات النبي ﷺ بالجراحات الكثيرة الدامية في وجهه الشريف، وإصابات من أُصيب من المسلمين بالقتل أو الجراح والتمثيل البشع الشنيع ببعض من استشهد ـ ولا سيما سيد الشهداء حمزة عم رسول الله ﷺ ـ أبلغ الأثر في نفس رسول الله ﷺ، وكانت تلك الإصابات وآثارها الوخيمة على المجتمع المسلم درسًا تربويًّا، تلقَّاه المجتمع المسلم ليتخذ منه معالم لمسيرته القيادية في مستقبل حياته، وكانت مظاهر لتمحيصه ليخلص من شوائب الجموح العاطفي في حُبِّه ﷺ الذي ساقه إليه التزيد العاطفي في هذا الحب؛ وليكون هذا المجتمع على أرفع درجات المتابعة له ﷺ في كل ما يأمر به رسولًا وقائدًا، والمتابعة تقتضي التسليم المطلق في تنفيذ وصاياه دون حرج أو تأويل يبعد تلك الأوامر والوصايا عن أهدافها ومراميها.

وقد دلَّت آية العتاب ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ** ﴾ على أن حبَّ النبي ﷺ يجب أن لا يتعدَّى بشريته ورسالته، فهو ﷺ بشر رسول أو رسول من البشر، والبشر رسلًا أو غير رسل لا عاصم لهم من الموت، وقد كان قبله ﷺ رسل من البشر بلَّغوا رسالات الله تعالى إلى خلقه، ثم ماتوا، ولم يكتب لأحد منهم الخلود في هذه الدنيا.

قال القرطبي: «فأَعلم الله تعالى في هذه الآية أن الرسل ليست بباقية في قومها أبدًا، وأنه يجب التمسك بما أتت به الرسل وإنْ فُقد الرسول بموت أو قتل...

فهذه الآية من تتمة العتاب مع المنهزمين، أي لم يكن لهم الانهزام وإنْ قُتل محمد ﷺ، والنبوة لا تدرأ الموت، والأديان لا تزول بموت الأنبياء.

وذِكْرُهُ ﷺ في الآية باسمه الأكرم إيذان بتأكيد بشريته، وهذا التأكيد يكسب العتاب شيئًا من الشدة الملائمة، ووصفهُ ﷺ بوصف الرسالة بأسلوب الحصر الإخباري مُشعر بوجوب متابعته في كل ما يأمر

به دون تأويل يبعده عن الامتثال؛ لأنه بمقتضى وصف الرسالة مبلِّغ عن الله تعالى ما أرسله به من شرعه وأحكامه التي يجب متابعته فيها مهما تكن الأسباب والنتائج؛ لأنه بإطلاق هذا الوصف وعمومه مفيد أنه لا يأتي بشيء من عنده، وإنما هو حامل لأمانة رسالة الله تعالى يبلِّغها كما أوحاها إليه ربه ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأحقاف:٩].

فالذي يحب دين الله وشرعه، ويؤمن بالله إلهًا واحدًا ليس له منصرف إلا متابعة مبلِّغ دينه الذي أرسله به، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[النساء]، وكما قال عز شأنه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[آل عمران: ٣١]». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٣/ ٦١٣-٦١٥].

٥ ـ متابعة الرسول ﷺ هي العنوان على محبة الله ومحبة الرسول محبة إيمانية:

يقول الشيخ عرجون: «اتباع الرسول ﷺ هو العنوان على محبة الله تعالى ومحبة دينه وبذل النفس والمال في سبيل نُصرة هذا الدين للوصول إلى رضاء الله تعالى، وليس على الرسول إلا بلاغ رسالة الله كما أنزلها الله عليه، فإعطاؤه فوق حقه بالتزيُّد العاطفي في حُبِّه وربط بقاء الدين ببقائه، فإذا مات أو قُتل رجعتم عن متابعته، خروج منكم عن التبعية فيما وجب عليكم ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ بالتزيد العاطفي في حب الرسول ﴿فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾؛ لأن الله هو الغني الحميد، لم يبعث رسله إلى خلقه لحاجة إلى هؤلاء الرسل والمرسل إليهم، وإنما بعثهم ليبلِّغوهم رسالات ربهم ليفردوه بالتعبد، ويستمسكوا بما آتاهم على رسله لإصلاح حياتهم، فمن اتَّبع هدى الله كان شكورًا لله تعالى مستحقًا جزاء الشاكرين الذين سيؤتيهم ثواب شكرهم في التزامهم بالحق، لا يتعدُّونه إلى جامحات العواطف، ولا يخرجون في التزامهم عن طبيعة الرسالة في متابعتهم الرسل في كل ما يبلِّغونه عن الله تعالى.

ومتابعة الرسول أساس وجوب التأسي به في الصبر على المكاره، والعمل الدائب على نشر الرسالة وتبليغ الدعوة ونصرة الحق ومقاومة الظلم، وهذا التأسي هو الجانب الأغر من جوانب منهج رسالة الإسلام؛ لأنه الدعامة الأولى في بناء مسيرة الدعوة لإعلاء كلمة الله ونشرها في آفاق الأرض».
[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٣/ ٦١٦].

٦ ـ الحب الإيماني بمتابعة الرسول ﷺ هو وشيجة تماسك المجتمع المسلم التي لا تنفصم عراها:

يقول الشيخ عرجون: «وعدم ربط بقاء الدين واستمرار الجهاد في سبيله ببقاء شخص النبي ﷺ في هذه الدنيا لا يلحقه فناء بموت أو قتل، وإيجاب متابعة الرسول ﷺ والتأسي به علمًا وعملًا هما

الوشيجة العظمى لتماسك المجتمع المسلم ولا سيما الدعاة إلى الله من أتباعه، وهما المعيار السوي لتقدير الشخصيات مهما كان شأنها من الرفعة بعيدًا عن المبالغات المفسدة لموازين الحق والعدالة؛ لأن البشر بأعلم علمائهم وأتقى أتقيائهم لم يخرجوا عن كونهم بشرًا مخلوقين لله تعالى، والبشر في طبيعتهم الخطأ فهم خطاؤون لم يعصم الله أحدًا منهم عن أن يكون بمعرض الخطأ والخطيئة، حاشا رسل الله وأنبياءه، فهم الذين ينفردون بالعصمة عن الخطأ فيما يبلِّغونه عن الله تعالى من شرائع وأحكام.

فالذي وقع في غزوة أُحد إنما كان من قبيل الابتلاء الممحِّص؛ ليعرف المجتمع المسلم وخيم عاقبة معصية الرسول ﷺ ومخالفة أمره عمومًا، ويتأكد ذلك في المواطن الأصيلة لبناء الدعوة إلى الله تعالى؛ وليعرف هذا المجتمع المسلم شؤم مخالفة الرسول ﷺ في أوامره ووصاياه، وخاصَّة إذا كان ذلك في ظل حياته وشهوده وقيادته العليا لكتائب المجاهدين من أصحابه الذين اصطفاهم الله لَبِنات لبناء المجتمع المسلم الذي ربَّاه ويربيه على منهج رسالته ليكونوا حملة أمانتها إلى الناس في أكناف الأرض.

وهذه المخالفة هي التي وقعت من الرماة الذين أقامهم رسول الله ﷺ في أماكنهم من جبل عَيْنين وراء الجيش المسلم ليحموا ظهره، فلم يطيقوا الصبر على البقاء في أماكنهم كما أمرهم رسول الله ﷺ، وتركوها متأوِّلين بمجرد ظهور بوادر النصر مع الجولة الأولى التي صدق فيها المجاهدون الحملة على المشركين فهزموهم.

وكانت أوامر رسول الله ﷺ لهم صريحة واضحة لا غموض فيها ولا إبهام، فإنه أمرهم أن لا يبرحوا من أماكنهم مهما كان سير المعركة حتى يرسل إليهم، ووعدهم ووعد جميع المجاهدين معهم إن هم ثبتوا حيث أقامهم كان النصر حليف المسلمين.

قال الزرقاني: وإلى هذا أشار ﷻ بقوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾[آل عمران]». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٣/ ٦١٦-٦١٧].

٧ ـ إثبات القدر والسبب:

يقول ابن القيم: «وختم الآية الأولى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾، إعلامًا لهم بعموم قدرته مع عدله، وأنه عادلٌ قادر، وفي ذلك إثباتُ القدرِ والسببِ، فذكرَ السببَ، وأضافه إلى نفوسهم، وذكر عمومَ القدرة وأضافها إلى نفسه، فالأول ينفي الجَبْرَ، والثاني ينفي القولَ بإبطال القدر، فهو يشاكل قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير].

وفي ذِكْر قدرته ها هنا نكتة لطيفة، وهى أن هذا الأمر بيده وتحت قدرتِهِ، وأنه هو الذي لو شاء لصرفه عنكم، فلا تطلبُوا كشفَ أمثاله من غيره، ولا تتَّكِلُوا على سواه، وَكَشَفَ هذا المعنى وأوضَحَه كُلَّ الإيضاح بقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦﴾[آل عمران]، وهو الإذن الكوني القدري، لا الشرعي الديني، كقوله في السِّحر: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ثم أخبر عن حِكمة هذا التقدير، وهى أن يعلَمَ المؤمنين مِن المنافقين عِلمَ عَيان ورؤية يتميز فيه أحدُ الفريقين من الآخر تمييزًا ظاهرًا، وكان مِن حكمة هذا التقديرِ تكلُّمُ المنافقين بما في نفوسهم، فسمعه المؤمنون، وسمعوا ردَّ الله عليهم وجوابه لهم، وعرفوا مؤدَّى النفاق وما يؤول إليه، وكيف يُحرم صاحبُه سعادةَ الدنيا والآخرة، فيعودُ عليه بفساد الدنيا والآخرة». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢١٤ -٢١٥].

٨ ـ وجوب التزام السنن الإلهية للتحقق بالنصر:

يقول د/ فيض الله: «أشارت آيات القرآن الكريم ـ في التعليق على هذه الغزوة ـ أن أحداث أُحد كانت بإذن الله، ووفقه سننه، وبيَّنتْ أن لله في هذا الكون سننًا ثابتة مستترة، تجري وفقها الأحداث، وأن الإنسان في تحركه وفعاليته يخضع لهذه السنن ولا يشذ عنها، بل هو في كل أحواله ينطبق عليها، ويَنضَوي تحتها، والسنن ومطابقاتها كلها بإذن الله وقدره، تتسق معه، ولا تخرج عنه.

وإن من سنة الله، أن النصر لمن صبر، وامتثل الأمر، وقد أَخَلَّ الأصحاب بالصبر، ولم يوفروا الشرط، فكانت الهزيمة المريرة، وكان القَرْح والجُرْح، وكان استشهاد سبعين من كبار الصحابة، وكانت الآلام المبرحة، وكان كل ذلك بقدر الله وإذنه ومشيئته وسنته.

وإن كون الصحابة مسلمين مجاهدين، لا ينبغي أن تغير لهم السنن والنواميس التي ربط الله تعالى بها كونه وأحداثه، بل من لوازم الإسلام أن يخضعوا لهذه السنن، وألا يعطلوها: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

لكن الإسلام يسعفهم في عون الله لهم، وهو يطبق عليهم سننه، فهو يرعاهم، ويتخذ من أخطائهم التي تقَرَّحوا بسببها، خيرًا لهم، وبركة عليهم، وتبدو بذلك الحكمة المستكنة وراء هذه السنة، والقدر المخبوء وراء هذه الأنظمة والنواميس.

قد كان وراء هذه الأحداث سنن مطبقة لا تتخلف: منها استدراج الكافرين، وتمحيص المؤمنين، ومداولة الأيام بين الناس، واختبار مبلغ الصبر على الحق والشدة، ومحق الكافرين المكذبين.

فلا ينبغي أن يطمح المؤمنون ـ لإيمانهم ولأنهم مؤمنون ـ أن يغير الله لأجلهم سننه ونظامه في الكون، وهذا سر تعجيل عقوبة المخالفة في أُحُد؛ ليعلموا أنهم ليسوا بدعًا من الناس، وأن الكون الذي سخر للناس، لا تُغيَّر نواميسه من أجلهم، بل تُطبَّق عليهم فيمن تُطبَّق.

ولا ينبغي أن يغترَّ المسلمون بالنصر يوم بدر، فيظنوا أن الدنيا دانت لهم، وأن العزَّ لن يتخلَّى عنهم، إنهم نالوه واستحقوه بالإخلاص والصبر والطاعة لله ورسوله، وعليهم أن يبقوا في مستواهم؛ ليبقى لهم العز والنصر، فإذا هبطوا عن مستواه ارتفع عنهم، وعزَّ عليهم». [صور وعبر لفيض الله ١٣٥-١٣٦].

ويقول أ/ خلف الله: «الأخذ بالأسباب واجب، وقد جعل الله تعالى لكل شيء سببًا، وعلى هذا بُني نظام الكون.

يقول صاحب المنار: «وكان المؤمنون السابقون إلى الإسلام على ثقة من وعد الله تعالى بنصر نبيه ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ وإظهار دينه، لم يزلزل إيمانهم بذلك ضعفهم وقلتهم، ولا إخراج المشركين للمهاجرين من ديارهم وأموالهم، وكانت وقعة بدر أول تباشير هذا النصر، فلما رأوا أن الله تعالى نصرهم على قلتهم وضعفهم بعد ما كان من دعاء الرسول ﷺ وتضرعه واستغاثة ربه زادهم ذلك إيمانًا بأنهم هم المنصورون، ولكن وقع في نفوس الكثيرين ـ إن لم نقل في نفوس الجميع ـ إن نصرهم سيكون بالآيات والعناية الخاصة من غير التزام للسنن الإلهية في الاجتماع البشري، وأن وجود الرسول ﷺ فيهم ودعاءه على أعدائهم هما أفعل في التنكيل بالكفار من التزام الأسباب الظاهرة التي أهمها طاعة القائد والتزام النظام العسكري وغير ذلك، ولكن الإسلام دين الفطرة لا الخوارق.

كانت عاقبة ذلك أن قصروا في هذه الأسباب يوم أحد حتى ظهر عليهم العدو وجرح الرسول ﷺ نفسه وإن لم يقصر هو ولم ينهزم ﷺ كما هي السنة الاجتماعية التي بينها تعالى في سورة الأنفال: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾[الأنفال]، إن الجنة تُنال بأسبابها ولا ينالها إلا الذي يبذل في الجهاد كل ما في وسعه ـ ونقصد بالجهاد هنا معناه الأعم ـ وتتمكن فيه صفة الصبر تمام التمكن حتى يصبح المؤمن قابلًا للقيام بأشق الأعمال عن رضى وطيب نفس ما دام ذلك يرضي الله ورسوله ويؤثر الحق على الباطل في جميع أحواله.

وقالوا إن التصديق لا يُعتد به ويكون إيمانًا صحيحًا إلا إذا وصل إلى درجة اليقين فإذا نزل على مرتبة اليقين كان ظنًّا أو شكًّا وليس الظن إيمانًا يعتد به والشك كفر صريح». [تفسير المنار ٤/ ١١٨].

فكأن ما حدث للصحب رضي الله عنهم من التأديب الإلهي في هذه الغزوة ما كانوا ليعلموا به من غير تطبيق على الواقع حتى تكمل لهم الفائدة والموعظة فلا يغتروا بشيء يشغلهم عن الاستعداد وتسديد النظر وأخذ الأهبة وغير ذلك من السنن الإلهية التي يتحقق بها الفوز والنصر ﴿ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦ ﴾[آل عمران: ١٥٢].

وإن طلب النصر والظفر دون الأخذ بهذه الأسباب عبث.

وقد بين الله سبحانه للمؤمنين ما فاتهم من الأسباب المؤدية إلى النصر والتي لو راعوها لما انهزموا».
[غزوة أُحد لخلف الله ١٧٤-١٧٥].

٩ ـ التسليم لقدر الله:

في دعاء النبي ﷺ في بداية المعركة يقول الإمام النووي: «قَالَ الْعُلَمَاءُ: فِيهِ التَّسْلِيمُ لِقَدَرِ الله تَعَالَى، وَالرَّدُّ عَلَى غُلَاةِ الْقَدَرِيَّةِ الزَّاعِمِينَ أَنَّ الشَّرَّ غَيْرُ مُرَادٍ وَلَا مُقَدَّرٍ ــ تَعَالَى اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ ــ وَهَذَا الْكَلَامُ مُتَضَمِّنٌ أَيْضًا لِطَلَبِ النَّصْرِ، وَجَاءَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ هَذَا يَوْمَ أُحُدٍ، وَجَاءَ بَعْدَهُ أَنَّهُ قَالَهُ يَوْمَ بَدْرٍ، وَهُوَ الْمَشْهُورُ فِي كُتُبِ السِّيَرِ وَالْمَغَازِي، وَلَا مُعَارَضَةَ بَيْنَهُمَا، فَقَالَهُ فِي الْيَوْمَيْنِ. وَاللهُ أَعْلَمُ».
[شرح النووي على مسلم ١٢/ ٤٨].

١٠ ـ إثبات نبوءة محمد ﷺ:

يقول د/ أبو خليل: «لقد كان أبو عامر من الرهبان، وعلى هؤلاء وعلى الأحبار أَخَذَ الله ﷻ الميثاق على لسان أنبيائهم بأنَّه إذا ظهر النبي العربي أن يؤمنوا به، وأن يدعوا الناسَ إلى الإيمان به، وكانوا قبل ظهوره يبشِّرون به، ويذكرون أوصافه، والبركات والخيرات وانتشار الإيمان، وإبادة الأصنام عند ظهوره، فلما ظهر وبُعِث وأُرْسِلَ، كانوا أوَّل الأعداء له، ونبذوا ميثاق الله الذي أخذه عليهم، واشتروا به ثمنًا قليلًا، ونظروا بعين المصلحة الدنيوية، فخُيِّل إليهم أنهم إذا اعترفوا بنبوَّته سيُحرمون المنافع المادية التي كانوا يأخذونها من أتباعهم، ورأوا أنهم سيخسرون زعامتهم، فآثروا المنفعة الدنيوية العاجلة على ميثاق الله الذي أخذه على أنبيائهم وعليهم، وآثروا دنياهم على آخرتهم (مع أن دنياهم لن تضيع، وسينعمون بعز الإيمان، ورفاه الإسلام)، والعاجل على الآجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران].

كتموا الحق، وأخفوا الحقيقة، وكان ما يجب أن يفعلوه الوفاء بالميثاق، وأن يبشِّروا بالنبي المنتظر، ويؤمنوا به، فلم يفعلوا ذلك، وأحبوا أن يُحمدوا وعملوا عكس ما يجب أن يفعلوا: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران]. [غزوة أُحد لأبي خليل ٤٣-٤٤].

ويقول د/ أبو خليل أيضًا: «ولم يخطر بباله ﷺ لحظة أن أُحُدًا قد رسمت مصير دعوته في المستقبل، بل هو على يقين أنها صورة عارضة، سرعان ما تتلاشى، فقال ﷺ لعلي ﷺ: «لَنْ يَنَالُوا مِنَّا مِثْلَ هَذَا الْيَوْمِ حَتَّى نَسْتَلِمَ الرُّكْنَ ـ وفي رواية ـ حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ عَلَيْنَا».
[الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٣١، سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٣٣٨، ٣٥٥، ٤٤١].

فمع ما في القول من أهمية النبوءة واستشفاف الغيب، وقلنا: إن نبوءة واحدة، يأتي الواقع خلافًا لها، كافية لتنفي النبوَّة كلها، فلو لم يكن محمد بن عبد الله رسول الله حقًّا وصدقًا، لما ألزم نفسه ﷺ بمثل هذه النبوءات، ولكنه رسول الله حقًّا ويقينًا، ولا ينطق عن الهوى.

وفي رباطة جأشه ﷺ، وفي هدوء أعصابه، وفي صموده وثباته، درس عظيم للمسلمين، فهو دليل على مبلغ ثقته بالله، ويقينه أن العاقبة للتقوى». [غزوة أُحد لأبي خليل ١٣٠-١٣١].

ويقول أ/ عبَّاد: «الذي يربط بين أقوال الرسول ﷺ وردوده في بدر وأحد يرى أن هناك أمرًا كأنه يلوح بين ناظريه ﷺ يحذر منه، ففي بدر قرر ﷺ نتيجة المعركة قبل وقوعها:

١ ـ «**سِيرُوا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ**»، والقافلة نجت فلم يبق إلا النصر.

٢ ـ «**وَاللهِ لَكَأَنِّي الآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ القَوْمِ، هَذَا مَصْرَعُ فُلانٍ، وَهَذَا مَصْرَعُ فُلانٍ...**» ويضع يده على الأرض ويقول ههنا.

٣ ـ كان يقول ﷺ في دعائه: «**اللَّهُمَّ فَنَصْرَكَ الَّذِي وَعَدْتنِي**».

أما في أُحد فكان يُحذِّر:

١ ـ الرؤيا التي رآها «**وَرَأَيْتُ بَقَرًا لِي تُذْبَحُ ، وَرَأَيْتُ فِي ذُبَابِ** (حد طرفه) **سَيْفِي ثَلَمًا**».

٢ ـ في الطريق إلى أُحد قال: «**شِمْ سَيْفَكَ ـ اغمده ـ فَإِنِّي إِخَالُ السُّيُوفَ سَتُسَلُّ فَيَكْثُرُ سَلُّهَا**».

٣ ـ يقول للرماة: «**لا يَأْتُونَا مِنْ خَلْفِنَا ، لَا تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نُقْتَلُ فَلا تُعِينُونَا وَلا تَدْفَعُوا عَنَّا، إِنَّا لا نَزَالُ غَالِبِينَ مَا مَكَثْتُمْ مَكَانَكُمْ، اللَّهُمَّ إِنِّي أُشْهِدُكَ عَلَيْهِمْ!**».

كل هذا يؤكد أن النبي ﷺ كان يشعر بشيء سيحدث، وهذا من معجزاته ﷺ».

[مفاهيم تربوية من غزوة أُحد لعبَّاد ٢٠٨-٢٠٩].

١١ ـ فضح التدين الكاذب:

في تفسيره للآيات ١٠٧-١٠٨ من سورة التوبة يقول ابن كثير: «سبب نزول هذه الآيات الكريمات، أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يُقال له **أبو عامر الراهب**، وكان قد تنصَّر في الجاهلية، وقرأ عِلم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجرًا إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شَرِق اللعين أبو عامر بريقه (شَرِق بريقه: امتلأ فضاق)، وبارز بالعداوة وظاهر بها، وخرج فارًّا إلى كفار مكة من مشركي قريش، يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أُحُد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله ﷻ، وكانت العاقبة للمتقين.

وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصَّفَّين، فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ، وأُصيب ذلك اليوم، فجرح في وجهه، وكُسرت رباعيته (السن بين الثنية والناب، وهي أربع: رباعيتان في الفك الأعلى، ورباعيتان في الفك الأسفل) اليمنى السفلى، وشُج رأسه ﷺ.

وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: **لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق يا عدو الله**، ونالوا منه وسبوه، فرجع وهو يقول: **والله لقد أصاب قومي بعدي شر**.

وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يُسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيدًا طريدًا، فنالته هذه الدعوة، وذلك أنه لما فرغ الناس من أُحُد، ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومناه وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يَعِدُهم ويمنِّيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ، ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلًا يقدم عليهم فيه مَنْ يقدم مِنْ عنده لأداء كتبه، ويكون مرصدًا له إذا قدم عليهم بعد ذلك.

فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاؤوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم؛ ليحتجوا بصلاته ﷺ فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه، وقال ﷺ: «**إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله**»، فلما قفل ﷺ راجعًا إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه جبريل عليه السلام بخبر مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم: مسجد قباء، الذي أُسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد مَنْ هدمه قبل مَقْدِمه المدينة.

كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية: هم أناس من الأنصار بنوا مسجدًا فقال لهم أبو عامر: **ابنوا مسجدًا واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجنود من الروم، وأُخرج محمدًا وأصحابه**، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا له: **قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه، وتدعو لنا بالبركة**، فأنزل الله ﷻ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ إلى قوله: ﴿الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾[التوبة].

وكذا روي عن سعيد بن جبير ومجاهد وعروة بن الزبير وقتادة وغير واحد من العلماء، وقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن الزهري، ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم،

قالوا: ثُمَّ أَقْبَلَ رَسُولُ الله ﷺ ـ يعني من تبوك ـ حَتَّى نَزَلَ بِذِي أَوَانَ ـ بَلَدٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ ـ وَكَانَ أَصْحَابُ مَسْجِدِ الضِّرَارِ قَدْ كَانُوا أَتَوْهُ وَهُوَ يَتَجَهَّزُ إِلَى تَبُوكَ، فَقَالُوا: **يَا رَسُولَ الله، إِنَّا قَدْ بَنَيْنَا مَسْجِدًا لِذِي الْعِلَّةِ وَالْحَاجَةِ وَاللَّيْلَةِ الْمَطِيرَةِ وَاللَّيْلَةِ الشَّاتِيَةِ، وَإِنَّا نُحِبُّ أَنْ تَأْتِيَنَا، فَتُصَلِّيَ لَنَا فِيهِ**، فَقَالَ: «**إِنِّي عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ، وَحَالِ شُغْلٍ** ـ أَوْ كَمَا قَالَ ﷺ ـ **وَلَوْ قَدْ قَدِمْنَا إِنْ شَاءَ اللهُ لَأَتَيْنَاكُمْ، فَصَلَّيْنَا لَكُمْ فِيهِ**»، فَلَمَّا نَزَلَ بِذِي أَوَانَ، أَتَاهُ خَبَرُ الْمَسْجِدِ، فَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ مَالِكَ بْنَ الدُّخْشُمِ، أَخَا بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ، وَمَعْنِ بْنِ عَدِيٍّ، أَوْ أَخَاهُ عَاصِمُ بْنُ عَدِيٍّ، أَخَا بَنِي الْعَجْلَانِ، فَقَالَ: «**انْطَلِقَا إِلَى هَذَا الْمَسْجِدِ الظَّالِمِ أَهْلُهُ، فَاهْدِمَاهُ وَحَرِّقَاهُ**»، فَخَرَجَا سَرِيعَيْنِ حَتَّى أَتَيَا بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ، وَهُمْ رَهْطُ مَالِكِ بْنِ الدُّخْشُمِ، فَقَالَ مَالِكٌ لِمَعْنٍ: «**أَنْظِرْنِي حَتَّى أخرج إِلَيْكَ بِنَارٍ مِنْ أَهْلِي**»، فَدَخَلَ إِلَى أَهْلِهِ، فَأَخَذَ سَعَفًا مِنَ النَّخْلِ، فَأَشْعَلَ فِيهِ نَارًا، ثُمَّ خَرَجَا يَشْتَدَّانِ حَتَّى دَخَلاَهُ وَفِيهِ أَهْلُهُ، فَحَرَّقَاهُ وَهَدَّمَاهُ، وَتَفَرَّقُوا عَنْهُ، وَنَزَلَ فِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ مَا نَزَلَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾[التوبة: ١٠٧] إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ. [سيرة ابن هشام ٢/ ٥٢٩-٥٣٠، تفسير ابن كثير ٧/ ٢٨٠-٢٨٢].

ويقول أ/ شاهين: «هذه إطلالة بسيطة تعطي خلفية كاملة عن رائد هذه المدرسة اللعينة، وحديثنا هنا يسلط الضوء على الخلفية النفسية والتكوينية لأبي عامر الفاسق.

إن هذا النموذج السيئ والذي كان يعد العدة في يوم من الأيام ليكون هو النبي، وكان يتجهز لذلك يكون صاحب نفسية عجيبة كل العجب، فهو لم يكن يبحث عن الحق أو عن هداية الخلق، إنما كما يريد أن يحقق ذاته ويبرز وجوده من خلال الظهور في مظهر الحق، وهو من أكذب الخلق على الله؛ لأن الحقيقة الكامنة خلف هذا المظهر الكاذب الخادع هي أنه يريد الرئاسة الدينية ليحتل بها مكانة في قلوب الخلق وليبرز ذكره بين الناس وتتحقق ذاته فيها، إنه المرض اللعين الذي يصيب تلك النفوس الهزيلة العليلة فيجعلها لا تبحث إلا عن ـ أنا ـ وأنا فقط.

إن بعض من يتصدون للدعوة اليوم ـ وإن كانوا مسلمين ـ مصابون بهذا الداء العُضال، ويحوزون تلك الخلفية النفسية المريضة لأبي عامر؛ ولذلك نجد أن عداءهم الشديد لحَمَلَة الإسلام المتجردين المخلصين الذين لا يبتغون إلا وجه الله تعالى، نجد أن هذا العداء له نفس لون وطعم العداء الذي كان يكنه أبو عامر لرسول الله ﷺ، ويختلط هذا الأمر على كثير من الناس فلا يستطيعون له تفسيرًا، ولكن الذي يدقق في مفاتيح النفوس البشرية وخلفياتها يدرك بوضوح أنا أبا عامر ـ وأمثاله من النماذج البشرية المماثلة له ـ إنما يُكِنُّون كل هذا الحقد الهائل لحَمَلَة الحق المخلصين المتجردين؛ لاعتقادهم أن مَنِ اصطفاهم الله تعالى لحمل رسالته قد سلبوهم الشيء الوحيد الذي كان من الممكن أن يحققوا فيه ذاتهم وكيانهم ووجودهم.

إن هذا النموذج السيئ من البشر نموذج هزيل ضعيف ذو نفسية خسيسة متدنية لا يستطيع أن يحقق ذاته إلا في أمر ذي طبيعة دينية، ليس حبًّا للدين ولكن عجزًا عن تحقيق ذاته في أي مجال آخر لضعفه وخسته.

إن أبا جهل وأمثاله لم يكونوا في حاجة أن يحققوا ذاتهم في مثل هذا الأمر ـ أمر التدين الكاذب ـ لأنهم كانوا أقوياء فجرة.

فحققوا ذواتهم في الكفر الصريح وفي معاداة الحق وأهله، فكانوا صرحاء في حربهم للدين.

أما أبو عامر وأمثاله فهم في حقيقة الأمر يكرهون الدين والتدين، ولكنهم لضعفهم وهوانهم وانسداد الطرق أمامهم لتحقيق ذواتهم في أي أمر آخر فيلجؤون كاذبين إلى تحقيق ذاتهم في الأمر الذي يكرهونه أشد الكره؛ لأنه لم يبق أمامهم غيره لإثبات كيانهم ووجودهم كذبًا ونفاقًا، فإذا اصطفى الله لهذا الدين من يحمله، وكان للمتقين إمامًا بحق، والتف الناس حوله وهداهم إلى رب العالمين، نجد أنا أبا عامر وأمثاله يتعرفون على حقيقتهم، فينقلبون صرحاء في حربهم لهذا الدين وحملته حربًا شعواء لا هوادة فيها.

ومن معالم هذه المدرسة كما قلنا مسجد الضرار، فصاحب فكرة هذا المسجد هو رائد تلك المدرسة أبو عامر الفاسق.

ومن معالم هذه المدرسة أيضًا ادعاء أصحابها أنهم على الحق الصافي النقي، وأن حَمَلة الحق الذين اصطفاهم الله له هم المحرِّفون في الرسالة، وما أفجر أبا عامر اللعين حينما قال لرسول الله ﷺ مبررًا عدم اتباعه له ولرسالته: «**ولكنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها**»، فيقول ﷺ: «**بلى جئتُ بها بيضاء نقية**»، فيعرِّض به اللعين ويقول له: «**يا محمد! إن الكاذب أماته الله طريدًا غريبًا وحيدًا**»، فيقول الرسول ﷺ: «**من فَعَل فَعَل الله به**»، أي من كان كاذبًا فينا فعلًا فعل الله به ذلك، فكان هو عدو الله أماته الله طريدًا غريبًا وحيدًا.

إن هذا المنطق هو منطق أهل هذه المدرسة في تشويه من اصطفاهم الله تعالى لحمل رسالته بصدق وتجرد.

ومن معالم هذه المدرسة أيضًا أنها تمثل المحور الأساسي والمركز الفعال الذي تلتقي عنده كل مدارس الباطل المختلفة لمحاربة الحق وأهله، لقد كان أبو عامر حركة دائمة نشيطة متوثبة في محاربة محمد ﷺ وأصحابه، لقد كان على صلة وثيقة بمدرسة عبد الله بن أُبي ابن سلول زعيم المنافقين، وقام بعقد مصاهرة معه، كما كان على صلة بمدرستي أبي جهل والوليد بن المغيرة في مكة، كما كان على صلة باليهود داخل المدينة (مدرسة حيي بن أخطب)، كما كان على صلة بالروم لتأليبهم على حرب محمد ﷺ، فكان أبو عامر هذا هو حلقة الربط الأساسية والمحورية بين كل مدارس الباطل لتجميعهم على محاربة الحق وأهله».

[أوائل المؤمنين وأكابر المجرمين لشاهين ٦١-٦٤].

١٢ ـ الإيمان ومحبة الرسول ﷺ:

يقول د/ البوطي: «ولنتأمل في وقع الموت على أصحاب رسول الله ﷺ وهم من حوله يحمونه بأجسادهم من نبال المشركين وضرباتهم، يتساقطون الواحد منهم إثر الآخر تحت وابل السهام، وهم في نشوة عارمة وحرص حريص على حفظ حياة الرسول ﷺ، لا يبالون بغير ذلك...!

فما هو مصدر هذه التضحية العجيبة؟

إنه الإيمان بالله تعالى ورسوله أولًا، ثم محبة رسول الله ﷺ ثانيًا، فهما معًا سبب هذه التضحية الرائعة العجيبة، والمسلم يحتاج إليهما معًا، لا يكفيه أن يدعي الإيمان بما ينبغي الإيمان به من أمور العقيدة، حتى يمتلئ قلبه بمحبة الله ورسوله أيضًا؛ ولذلك قال ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**». [البخاري في الإيمان (١٤، ١٥)، ومسلم في الإيمان (٤٤)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠١٣، ٥٠١٤، ٥٠١٥)، وابن ماجه في المقدمة (٦٧)، وأحمد عن أنس ﷺ (١٢٤٠٣ و ١٣٤٩٩)].

وبيان ذلك: أن الله ﷻ قد غرس في الإنسان عقلًا وقلبًا، أما الأول فلكي يفكر به فيؤمن بما يجب الإيمان به، وأما الثاني فلكي يستعمله في محبة مَنْ أمر الله بمحبته وبغض مَنْ أمر الله ببغضه، وإذا لم يشغل القلب بمحبة الله ورسوله والصالحين من عباده فسيمتلئ ولابد بمحبة الشهوات والأهواء والمحرمات، وإذا فاض القلب بمحبة الشهوات والأهواء فهيهات أن يصبح الاعتقاد وحده حاملًا لصاحبه على أي عمل من أعمال التضحية أو الفداء.

وهذه الحقيقة من الأوليات التي أقرها علماء التربية والأخلاق، ودلت عليها التجارب البديهية، واسمع ما يقوله في ذلك جان جاك روسو في كتابه (إميل): «كم قيل وأُعيد القول عن الرغبة في إقامة الفضيلة على العقل وحده، ويا له من أساس متين!... أي أساس هذا!... إن الفضيلة كما يقولون هي النظام، ولكن هل يستطيع الإيمان بالنظام أن يتغلب على مسرتي الخاصة؟... إن هذا المبدأ المزعوم ليس إلا لعبًا بالألفاظ فالرذيلة هي حب النظام بشكل مختلف».

[راجع للتوسع في هذا البحث كتابنا (د/ البوطي): تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث].

من أجل هذه الحقيقة لم تستطع الحكومة الأمريكية أن تلتزم بما آمنت به واعتقدت بفائدته يوم أقدمت على تحريم الخمر ومنع مداولتها في المجتمعات والنوادي وذلك عام ١٩٣٣م، إذ لم تمض سوى فترة وجيزة حتى نكص المقننون على أعقابهم، وارتدُّوا مترنحين من ألم الحرمان فألغوا القانون الذي التزموه وراحوا يعبُّون أقداحهم من جديد.

هذا على حين أن أصحاب النبي ﷺ ـ وهم من هم من الثقافة والمدنية والمعرفة بالأضرار والفوائد بالنسبة للأمريكيين اليوم ـ عمدوا بمجرد أن سمعوا أمر الله ﷻ لهم باجتناب الخمر، إلى دنان الخمر فأراقوها وإلى الأقداح فكسروها، وارتفعت أصواتهم تقول: انتهينا يا رب انتهينا...!

والفرق بين الصورتين والواقعتين، أن ههنا شيئًا قد وقر في القلب فكان هواه تبعًا لأمر الله وأحكامه.

هذه المحبة، بل هذا الهوى المستحوذ على قلوب أصحاب رسول الله ﷺ هو الذي جعلهم يمدون نحورهم دون نحر رسول الله ﷺ، ويعانقون الموت في سبيل حفظ حياته ﷺ.

وكم في غزوة أحد من المشاهد الرائعة التي تكشف عن أثر هذه المحبة إذ تغمر قلب صاحبها.

روى ابن هشام أن النبي ﷺ قال لأصحابه: «**مَنْ رَجُلٌ يَنْظُرُ لِي مَا فَعَلَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ؟ أَفِي الأَحْيَاءِ هُوَ أَمْ فِي الأَمْوَاتِ؟**» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ: أَنَا أَنْظُرُ لَك يَا رَسُولَ الله مَا فَعَلَ سَعْدٌ، فَنَظَرَ فَوَجَدَهُ جَرِيحًا فِي القَتْلَى وَبِهِ رَمَقٌ، قَالَ: فَقُلتُ لَهُ: إنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَمَرَنِي أَنْ أَنْظُرَ أَفِي الأَحْيَاءِ أَنْتَ أَمْ فِي الأَمْوَاتِ؟ قَالَ: **أَنَا فِي الأَمْوَاتِ، فَأَبْلِغْ رَسُولَ الله ﷺ عَنِّي السَّلَامَ، وَقُل لَهُ: إنَّ سَعْدَ بْنَ الرَّبِيعِ يَقُولُ لَكَ: جَزَاكَ اللهُ عَنَّا خَيْرَ مَا جَزَى نَبِيًّا عَنْ أُمَّتِهِ، وَأَبْلِغْ قَوْمَكَ عَنِّي السَّلَامَ، وَقُل لَهُمْ: إنَّ سَعْدَ بْنَ الرَّبِيعِ يَقُولُ لَكُمْ: إنَّهُ لَا عُذْرَ لَكُمْ عِنْدَ الله إنْ خَلُصَ إلَى نَبِيِّكُمْ ﷺ وَمِنْكُمْ عَيْنٌ تَطْرِفُ، قَالَ: ثُمَّ لَمْ أَبْرَحْ حَتَّى مَاتَ، قَالَ: فَجِئْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ خَبَرَهُ.** [السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٩٤-٩٥].

ويوم تمتلئ أفئدة المسلمين في عصرنا هذا بنحو هذه المحبة، بحيث تبعدهم قليلًا عن شهواتهم وأنانيتهم، وتتغلب عليهم ـ أقول: يوم يحدث هذا في أفئدة المسلمين فإنهم يصبحون خلقًا آخر جديدًا، وسينتزعون انتصارهم من بين شدقي الموت، وسيتغلبون على أعدائهم، مهما كانت العقبات والسدود.

وإذا سألت عن السبيل إلى مثل هذه المحبة، فاعلم أنها كثرة الذكر وكثرة الصلاة على رسول الله ﷺ، وفي كثرة التأمل والتفكر في آلاء الله ونعمه عليك، وفي سيرة رسول الله ﷺ وأخلاقه وشمائله، وهذا كله بعد الاستقامة على العبادات في خشية وحضور، والتبتل إلى الله ﷻ بين الحين والآخر».

[فقه السيرة للبوطي ١٩٤-١٩٥].

١٣ ـ النار مصير قتلى القومية:

يقول أ/ عبَّاد: «نسأل الله حُسن الخاتمة، وصدق النبي ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ قَالَ: التَقَى النَّبِيُّ ﷺ وَالْمُشْرِكُونَ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ، فَاقْتَتَلُوا، فَمَالَ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، وَفِي الْمُسْلِمِينَ رَجُلٌ لَا يَدَعُ مِنْ الْمُشْرِكِينَ شَاذَّةً وَلَا فَاذَّةً إِلَّا اتَّبَعَهَا فَضَرَبَهَا بِسَيْفِهِ، فَقِيلَ: **يَا رَسُولَ الله! مَا أَجْزَأَ أَحَدٌ مَا أَجْزَأَ فُلَانٌ! فَقَالَ: «إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»**، فَقَالُوا: **أَيُّنَا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ إِنْ كَانَ هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟!** فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ: لَأَتَّبِعَنَّهُ، فَإِذَا أَسْرَعَ وَأَبْطَأَ كُنْتُ مَعَهُ حَتَّى جُرِحَ فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَوَضَعَ نِصَابَ سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَجَاءَ الرَّجُلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: **أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الله**، فَقَالَ: «**وَمَا ذَاكَ؟**»، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ ـ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ ـ وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ـ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ ـ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**».

وفي رواية: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالخَوَاتِيمِ**». [البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٢)، وفي المغازي (٤٢٠٧)، وفي القدر (٦٥٩٤)، وفي التوحيد (٧٤٥٤)، وأبو داود في السنة (٤٧٠٨)، والترمذي في القدر (٢١٣٧)، وابن ماجه في المقدمة (٧٦)، وأحمد عن عبد الله بن مسعود ﷺ (٣٦١٧، ٣٩٢٤، ٤٠٨٠)، وعن سهل بن سعد ﷺ (٢٢٣٠٦، ٢٢٣٢٨)].

فقزمان قاتل في جانب النبي ﷺ ـ فيما يبدو للناس ـ فكانوا يظنونه من أهل الجنة حيث مات شهيدًا، ولكن الحقيقة عكس ذلك، حيث قاتل حمية دفاعًا عن أحساب قومه، فظهرت تلك الحقيقة عندما أشرف على الموت وعُلم نفاقه فكان من أهل النار.

وقد حدثت مثل حادثة قزمان هذا حادثة لرجل آخر يوم خيبر، قاتل في جانب المسلمين حتى قُتل، ولكن قتاله لم يكن على الإسلام وإنما كان قتالًا وطنيًّا قوميًّا مجردًا (كقتال قزمان المنافق) وعندها أمر رسول الله ﷺ بلالًا فنادى في الناس: «**إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَأَنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ**». روى هذه الحادثة أحمد في مسنده عن أبي هريرة ﷺ.

[مسلم في الإيمان (١١١)، وأحمد عن أبي هريرة ﷺ (٨٠٢٩)].

وهذا مصير من يقتل خارج نطاق العقيدة الإسلامية، وفي غير سبيل نصرتها، فإن مصيره في الآخرة النار، وإن قُتل في جيش يقوده النبي ﷺ وخلف لواء يعقده النبي ﷺ؛ وذلك لأن قتاله ليس على عقيدة الإسلام بل عن حسب وحمية، وهذه هي عقيدة القوميين والعلمانيين واللادينيين، الذين يرون أنه من الرجعية والطائفية الالتزام في الكفاح بالإسلام، بل إنهم يحاربون كل من يدعو إلى الإسلام ويستنكرون محاربة أي أحد ـ حتى اليهود ـ باسم الإسلام، فما أفسدها عقيدة وما أخزاه مصير لكل من يدَّعي الإسلام ثم يرفض القتال تحت عقيدته ومبادئه.

وفي مثل هؤلاء سُئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله، فقال ﷺ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**». [سبق تخريجه في بداية هذا المبحث].

وفي قزمان وأمثاله قال النبي ﷺ: «**إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَأَنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ**». [مفاهيم تربوية من غزوة أُحد لعبَّاد ١٥٠، ١٥٣، غزوة أُحد لباشميل ١٩٩].

١٤ ـ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ:

يقول الشيخ الصوياني: «وأما هذا البطل المجاهد فهو من أهل النار، ليس لأنه غير مسلم، بل هو مسلم، لكن هناك فرق بين الاستشهاد والانتحار، وهذا البطل المجاهد قد انتحر، لم يصبر لتقتله جروحه أو ليشفى منها، لم يقتله أحد، بل هو الذي قتل نفسه، ولو أدرك ما للجراح والآلام من منافع

لطلب المزيد، قال ﷺ: «**إِذَا ابْتَلَى اللهُ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ بِبَلَاءٍ فِي جَسَدِهِ، قَالَ اللهُ: اكْتُبْ لَهُ صَالِحَ عَمَلِهِ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، فَإِنْ شَفَاهُ غَسَلَهُ وَطَهَّرَهُ، وَإِنْ قَبَضَهُ غَفَرَ لَهُ وَرَحِمَهُ**». [مسند أحمد ١٩/ ٤٨٣ رقم ١٢٥٠٣، ٢١/ ٢٦٨ رقم ١٣٧١٢، وقال الشيخ الأرناؤوط: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: **إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِيَ الْمُؤْمِنَ، وَلَمْ يَشْكُنِي إِلَى عُوَّادِهِ أَطْلَقْتُهُ مِنْ إِسَارِي، ثُمَّ أَبْدَلْتُهُ لَحْمًا خَيْرًا مِنْ لَحْمِهِ، وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ، ثُمَّ يُسْتَأْنَفُ الْعَمَلَ**».

[صحيح: [ك هق] عن أبي هريرة ﷺ. صحيح الجامع الصغير (٤٣٠١].

ويبدأ من جديد مطهرًا من كل ذنب..

ويقول ﷺ عن الذين يكثر ابتلاؤهم وامتحانهم في الدنيا: «**إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ**».

[حسن: [ت هـ] عن أنس ﷺ. صحيح الجامع الصغير (٢١١٠)].

أما عن مثل هذا المسلم الشجاع، فقد قال ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ** (يطعن) **بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ شَرِبَ سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ** (يشربه في تمهل ويتجرعه) **فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى** (ينزل) **مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا**». [صحيح: [حم ق ت ن هـ] عن أبي هريرة ﷺ. صحيح الجامع الصغير (٦٤٥٩)].

[السيرة النبوية للصوياني ٢/ ٢٣١-٢٣٢].

١٥ ـ عدم تكفير الفرد إلا ببرهان (لنا الظاهر والله يتولى السرائر):

يقول أ/ عبَّاد: «أما الأصيرم ﷺ فكان مشركًا ـ فيما يبدو للناس ـ وهو يقاتل بجانب النبي ﷺ حتى ظنوا أنه قاتل دفاعًا عن قومه فظهرت الحقيقة وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، حيث كان يقاتل دفاعًا عن الإسلام ورغبة فيه والتزامًا بمبادئه وإيمانًا برسوله ﷺ، فاستحق الجنة.

[دخل الجنة وما صام لله يومًا، يا لكرم الله، الجنة، خلودها وسحرها وعوالمها لهذا الفارس من أجل لحظات، لكنها لحظات من التوحيد، لحظات شارك فيها عمرو بن أقيش في هزيمة الأصنام وأهله].

[السيرة النبوية للصوياني٢/ ٢٠٩].

ولحكمة ـ الله أعلم بها ـ لم يمت أحد منهما ـ قزمان والأصيرم ـ حتى تحدثا مع القوم لنأخذ من ذلك درسًا عمليًّا مهمًّا، ونعلم معنى دعاء: «**اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي [قُلُوبَنَا] عَلَى دِينِكَ**».

[الترمذي في القدر (٢١٤٠)، وفي الدعوات (٣٥٢٢، ٣٥٨٧)، وأحمد عن أنس ﷺ (١١٦٩٧، ١٣٢٨٤)، وعن النواس بن سمعان ﷺ (١٧١٧٨)، وعن عائشة ﷺ (٢٤٠٨٣، ٢٥٦٠٢)، وعن أم سلمة ﷺ (٢٥٩٨٠، ٢٦٠٣٦، ٢٦١٣٩)، وقال الشيخان الألباني والأرناؤوط: صحيح]. [مفاهيم تربوية من غزوة أُحد لعبَّاد ١٥٢].

١٦ ـ الإيمان بوجود الملائكة:

يقول د/ أبو فرحة: «يتطلب الحديث عن جهاد الملائكة يوم أُحد تحقيق أمرين هما:

أولًا: الإمداد بالملائكة في غزواته عمومًا، حيث أنكر البعض مطلق الإمداد في جميع الغزوات، وقد فصلنا القول فيه في المرحلة الثانية من غزوة بدر الكبرى.

فإذا بطل هذا الرأي وثبت الإمداد العام، فلننتقل إلى الأمر الثاني، وهو الإمداد الخاص بيوم أُحد.

فعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ قَالَ: **رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، وَمَعَهُ رَجُلَانِ يُقَاتِلَانِ عَنْهُ، عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ، كَأَشَدِّ القِتَالِ، مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ وَلَا بَعْدُ.** [البخاري في المغازي (٤٠٥٤)].

وعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ قَالَ: **رَأَيْتُ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَنْ شِمَالِهِ يَوْمَ أُحُدٍ رَجُلَيْنِ، عَلَيْهِمَا ثِيَابُ بَيَاضٍ، مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ وَلَا بَعْدُ،** يَعْنِي جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ عليهما السلام.

[البخاري في اللباس (٥٨٢٦)، ومسلم في الفضائل (٢٣٠٦) واللفظ له، ومسند أحمد رقم ١٥٣٠].

وعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ قَالَ: **لَقَدْ رَأَيْتُ يَوْمَ أُحُدٍ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَنْ يَسَارِهِ رَجُلَيْنِ، عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ يُقَاتِلَانِ عَنْهُ كَأَشَدِّ القِتَالِ، مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ وَلَا بَعْدُ.**

[مسلم في الفضائل (٢٣٠٦)، ومسند أحمد رقم ١٤٦٨، ١٤٧١].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ: «**هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِرَأْسِ فَرَسِهِ، عَلَيْهِ أَدَاةُ الحَرْبِ**». **[البخاري في المغازي (٤٠٤١)، وذكرها أيضاً البخاري ـ ولكنها عن غزوة بدر ـ في المغازي (٣٩٩٥)].**

وَعَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ، قَالَ: قَالَ الحَارِثُ بن الصِّمَّةِ ﷺ: سَأَلَنِي رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَهُوَ فِي الشِّعْبِ: «**هَلْ رَأَيْتَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بن عَوْفٍ؟**»، قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله! رَأَيْتُهُ إِلَى جَرٍّ (أسفل)الجَبَلِ، وَعَلَيْهِ عَكَرٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَهَرَبْتُ إِلَيْهِ لأَمْنَعَهُ، فَرَأَيْتُكَ فَعَدَلْتُ إِلَيْكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَمَا إِنَّ المَلَائِكَةَ تُقَاتِلُ مَعَهُ**»، قَالَ الحَارِثُ: فَرَجَعْتُ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَأَجِدُهُ بَيْنَ نَفَرٍ سَبْعَةٍ صَرْعَى، فَقُلْتُ لَهُ: ظَفِرَتْ يَمِينُكَ، أَكُلَّ هَؤُلاءِ قَتَلْتَ؟ قَالَ: أَمَّا هَذَا ـ لأَرْطَاةَ بن شُرَحْبِيلَ ـ وَهَذَا، فَأَنَا قَتَلْتُهُمَا، وَأَمَّا هَؤُلاءِ فَقَتَلَهُمْ مَنْ لَمْ أَرَهُ، قُلْتُ: صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ. **[مجمع الزوائد ٦/ ١٦٣-١٦٤كتاب المغازي والسير (١٠٠٨٢)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٣/ ٢٧١ رقم ٣٣٨٥]، والبزار وفيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف].**

وقال ابن أبي شيبة في المصنف: حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ الحُبَابِ عَنْ مُوسَى بْنِ عُبَيْدَةَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ ثَابِتٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ يَوْمَ أُحُدٍ: **أَقْدِمْ يَا مُصْعَبُ**، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ ﷺ: يَا رَسُولَ الله، أَلَمْ يُقْتَل مُصْعَبُ؟ قَالَ: «**بَلَى، وَلَكِنْ مَلَكٌ قَامَ مَكَانَهُ، وَتَسَمَّى بِاسْمِهِ**».

[المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٥٣ كتاب المغازي (٣٧٩٢٥)، وقال الشيخ عوامة: إسناده معضل وضعيف].

وقال ابن سعد: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ قَالَ: حَدَّثَنِي الزُّبَيْرُ بْنُ سَعْدٍ النَّوْفَلِي عَنْ عَبْدِ الله بْنِ الفَضْلِ بْنِ العَبَّاسِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَالَ: أَعْطَى رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ ﷺ

اللِّوَاءَ فَقُتِلَ مُصْعَبُ، فَأَخَذَهُ مَلَكٌ فِي صُورَةِ مُصْعَبٍ فَجَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ لَهُ فِي آخِرِ النَّهَارِ: **تَقَدَّمْ يَا مُصْعَبُ**، فَالتَفَتَ إِلَيْهِ المَلَكُ فَقَالَ: **لَسْتُ بِمُصْعَبٍ**، فَعَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ أَنَّهُ مَلَكٌ أُيِّدَ بِهِ.

[المغازي للواقدي ١/ ٢٣٤، والطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ١١١].

وروى ابن إسحاق والبيهقي وابن عساكر عن عبد الله بن عون عن عمير بن إسحاق قال: لـمَّا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ انْكَشَفُوا عَن رَسُولِ الله ﷺ وَسَعْدٌ ﷺ يَرْمِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَفَتَى يَنْبُلُ لَهُ، كُلَّمَا ذَهَبَ نِبْلُهُ أَتَاهُ بِهَا، قَالَ: ارْمِ أَبَا إِسْحَاقَ، فَلـمَّا فَرِغُوا نَظَرُوا مَنِ الشَّابُّ؟ فَلَمْ يَرَوْهُ، وَلَمْ يُعْرَفْ.

[سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٣٠٤، والحديث رواه ابن أبي شيبة في المصنف ٢٠/ ٣٤٥ في المغازي (٣٧٩٠١)، وقال الشيخ عوَّامة: حديث مرسل، وعمير بن إسحاق لا أقل من: لا بأس به، كما قال النسائي، لا: مقبول، وقد رواه البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٢٥٦-٢٥٧ من طريق ابن عون، به.].

وروى ابن إسحاق والواقدي وابن عساكر عن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ قال: لَقَدْ رَأَيْتُنِي أَرْمِي السَّهْمَ يَوْمَ أُحُدٍ فَيَرُدُّهُ عَلَيَّ رَجُلٌ أَبْيَضُ حَسَنُ الوَجْهِ لَا أَعْرِفُهُ، حَتَّى كَانَ بَعْدُ فَظَنَنْتُ أَنَّهُ مَلَكٌ.

[سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٣٠٤، المغازي للواقدي ١/ ٢٣٤].

وروى البيهقي عن عروة في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، قَالَ: كَانَ اللهُ تَعَالَى وَعَدَهُمْ عَلَى الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى أَنْ يَمُدَّهُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ المَلَائِكَةِ مُسَوَّمِينَ، وكَانَ قَدْ فَعَلَ، فَلـمَّا عَصَوْا أَمْرَ رَسُولِ الله ﷺ وَتَرَكُوا مَصَافَّهُمْ، وَتَرَكَتِ الرُّمَاةُ عَهْدَ رَسُولِ الله ﷺ: أَلَّا يَبْرَحُوا مِنْ مَنَازِلِهِمْ، وَأَرَادُوا الدُّنْيَا، رَفَعَ عَنْهُمْ مَدَدَ المَلَائِكَةِ، وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾، فَصَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ وَأَرَاهُمُ الفَتْحَ، فَلـمَّا عَصَوْا أَعْقَبَهُمُ البَلَاءَ.

[سبل الهدى والرشاد للصالحي٤/ ٣٠٤].

تلك نصوص المثبتين، وأما نصوص النافين للمدد بالملائكة يوم أُحد فهي:

قال ابن عباس ﷺ: لَمْ تُقَاتِلِ المَلَائِكَةُ فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ سِوَى يَوْمَ بَدْرٍ، وَكَانُوا يَكُونُونَ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الأَيَّامِ عَدَدًا وَمَدَدًا لَا يَضْرِبُونَ. [تفسير الطبري ٤/ ٤٨].

وقال مجاهد: حَضَرَتْ المَلَائِكَةُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُقَاتِلُوا. [الفخر الرازي ٨/ ٢٢٤].

وقال البيهقي: لَمْ يُقَاتِلُوا يَوْمَ أُحُدٍ عَنِ القَوْمِ. [إنسان العيون ٢/ ٢٦٦].

وقال ابن جرير: فَأَمَّا فِي يَوْمِ أُحُدٍ، فَالدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يُمَدُّوا أَبْيَنُ مِنْهَا فِي أَنَّهُمْ أُمِدُّوا؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَوْ أُمِدُّوا لَمْ يُهْزَمُوا، وَيُنَالَ مِنْهُمْ مَا نِيلَ مِنْهُمْ. [تفسير الطبري ٨/ ١٨١].

تلك أهم نصوص المثبتين، والنافين، ويبدو لي أن لا تعارض بينها، فلا تعارض بين الإمداد، وبين افتقاد الصبر والتقوى المعلَّق عليهما الإمداد، كما أنه لا تعارض بين الإمداد وبين وقوع الهزيمة؛ ذلك لأن

المدد المعلَّق على الصبر والتقوى، إنما هو المدد العام بالعدد المذكور الثلاثة آلاف أو الخمسة آلاف، وذلك لم يحدث لفقدان شروطه؛ ولأنه لو حدث لاشتهر أمره، كما حدث يوم بدر، ولَمَا هُزم المسلمون يوم أُحد.

أما المدد المثبت يوم أُحد فهو مدد آخر غير ما وُعدوا به، هو مدد خاص بمقدار ما يحفظ سيدنا رسول الله ﷺ تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وذلك كما جاء في حديث البخاري ومسلم السابقين، وقتال عن ابن عوف ﷺ كما في حديث الطبراني وابن منده.

كما أنه كان هناك عون محدود بغير قتال، بدأ في حمل أَحد الملائكة اللواء بعد قتل مصعب بن عمير ﷺ؛ ليراه المسلمون فلا ينكسروا، وفي رد السهام على سعد بن أبي وقاص ﷺ». [غزوة أُحد لأبي فرحة ٢١٢-٢١٣].

ويقول د/ أبو فارس: «لم يتخل الله ﷻ عن رسوله ﷺ في هذه الغزوة وفي غيرها، فقد تعهد الله ﷻ بعصمته من الناس الذين يعادونه حتى يبلِّغ رسالته، ويحقق غايته في واقع الحياة، بتطبيق شريعته وقيام دولته.

وقد تجلت عصمة الله ﷻ لرسوله محمد ﷺ في هذه الغزوة حينما اضطرب أمر المسلمين، وتفرقوا عن رسول الله ﷺ، وانكشفوا عنه، وتعرض وجهه ﷺ إلى سبعين ضربة سيف وقاه الله شرها، وأنزل الملائكة تدافع عنه». [غزوة أُحد لأبي فارس ١٠٣].

١٧ ـ سوء عاقبة المعصية، والفَشَل، والتنازُع:

يقول ابن القيم في حكم أُحُد: «**فمنها: تعريفُهم سوءَ عاقبة المعصية، والفَشَل، والتنازُع، وأن الذي أصابَهم إنما هو بِشُؤمِ ذلِكَ**، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢﴾ [آل عمران].

فلما ذاقُوا عاقبةَ معصيتِهم للرسول ﷺ، وتنازعهم، وفشلهم، كانُوا بعد ذلك أشدَّ حذرًا ويقظة، وتحرُّزًا مِن أسبابِ الخِذلان». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ١٩٦].

«إن مخالفة أمر القائد الحازم البصير يؤدي إلى خسارة المعركة، كما حصل في وقعة أحد، فلو أن رماة النبل الذين أقامهم الرسول ﷺ خلف جيشه ثبتوا في مكانهم كما أمرهم الرسول ﷺ لما استطاع المشركون أن يلتفوا من حولهم، ويقلبوا هزيمتهم أول المعركة إلى نصر في آخرها، وكذلك يفعل العصيان في ضياع الفرص، ونصر الأعداء، وقد أنذر الله المؤمنين بالعذاب إن خالفوا أمر رسولهم، فقال: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾[النور]». [السيرة النبوية للسباعي ص ١١٥].

ويقول د/ الزيد: «**سوء عاقبة التنازع**: فعندما تنازع الصحابة، منهم من يريد النزول من الجبل والمشاركة في جمع الغنائم، ومنهم من يريد البقاء واختلفوا كما يقول الله جل شأنه: ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾ كان هذا التنازع من أسباب ما جرى في أُحد من تغير مجراها لغير صالح المسلمين، وبناء على ذلك يجب على المسلم أن يحذر الفرقة والنزاع وأن يحرص أن يكون عضوًا صالحًا في مجتمعه متلاحمًا مع إخوانه مبتعدًا عن النزاع وأسبابه.

سوء عاقبة الذنوب والمعاصي: فإن ما وقع من المعصية في أُحد كما قال تعالى: ﴿وَعَصَيْتُم﴾ كان سببًا من أسباب ما جرى، والذنوب ضررها عظيم وسريع على الفرد والمجتمع، وقد أُخرج آدم عليه السلام من الجنة بسبب المعصية، وطُرد إبليس (لعنه الله) من رحمة الله بسبب المعصية». [فقه السيرة للزيد ٤٥٩].

١٨ـ سنة الله في الصراع بين الحق والباطل (١):

يقول الشيخ المدري: «وفي غزوة أحد تأكيد لسنة الله في الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، فقد جرت سنة الله في رسله وأتباعهم أن تكون الحرب سجالًا بينهم وبين أعدائهم، فيدالوا مرة ويدال عليهم أخرى، ثم تكون لهم العاقبة في النهاية، ولئن انتفش الباطل يومًا وكان له صولات وجولات، إلا أن العاقبة للمتقين، والغلبة للمؤمنين، فدولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

والجنة عزيزة غالية لا تُنال إلا على جسر من المشاق والمتاعب، والنصر الرخيص السهل لا يدوم، ولا يدرك الناس قيمته، ولذلك قال الله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران]». [غزوة أحد للمدري ٣-٣٢].

ويبين ابن القيم رحمه الله حِكمة الله وسُنَّته في رُسله، وأتباعِهم، فيقول في حكم أُحُد: «**ومنها: أن حِكمة الله وسُنَّته في رُسله، وأتباعِهم، جَرَتْ بأن يُدَالوا مَرَّةً، ويُدَالَ عليهم أُخرى، لكن تكونُ لهم العاقبةُ**، فإنهم لو انتصرُوا دائمًا، دخلَ معهم المؤمنون وغيرُهم، ولم يتميَّز الصَّادِقُ مِن غيره، ولو انتُصِرَ عليهم دائمًا، لم يحصل المقصودُ من البعثة والرسالة، فاقتضت حِكمة الله عز وجل أن جَمَعَ لهم بينَ الأمرين؛ ليتميز مَن يتبعُهم ويُطيعهُم للحق، وما جاؤوا به ممن يتبعُهم على الظهور والغلبة خاصة.

فإن هذا مِن أعلام الرسل، كما قال هِرَقْلُ لأبي سفيان: **هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟** قال: **نَعَمْ**، قَالَ: **كَيْفَ الحَرْبُ بَيْنَكُم وبَيْنَه؟** قالَ: **سِجَالٌ، يُدَالُ عَلَيْنَا المَرَّةُ، ونُدالُ عَلَيْهِ الأُخْرَى**، قال: **كَذلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ العَاقِبَةُ**». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ١٩٦-١٩٧].

---

(١) للتفصيل في هذا الدرس ينظر: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية ـ د/ عبد الكريم زيدان ـ الفصل الثالث: سُنَّة الله في التدافع بين الحق والباطل [قانون التدافع]. غريب.

ويقول الشيخ عرجون: «من الحِكم التي تضمَّنتها محنة الابتلاء والتمحيص في غزوة أُحد أن سنة الله تعالى مع أنبيائه ورسله أن يبتليهم في الدنيا ويجعل لهم فيها العاقبة الحميدة، وخاصة في معارك الجهاد في سبيل الله؛ لأنهم لو انتصروا دائمًا في حروبهم مع أعدائهم لفُتن الناس بهم، فتزيَّدوا في حبهم وطاعتهم، وفي الاعتقاد فيهم بما يباعد بينهم وبين بشريتهم، وأنهم مخلوقون يجري عليهم ما يجري على سائر البشر من المحن والبلايا فيما لا يمسُّ حقيقة رسالاتهم وقداساتها، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران]، وقوله عز شأنه: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ ...﴾ [آل عمران: ١٧٩].

ولو انكسروا دائمًا لم يتحقق المقصود من بَعْثتهم لهداية الناس؛ لأن الانكسار دائمًا يدعو إلى الشك فيهم وفي صدقهم، فاقتضت الحكمة الإلهية الجمع بين الانتصار لفتح طريق مسيرة الدعوة إلى الله، وإزالة العقبات التي تقف أمامها، وبين الابتلاء للتربية على احتمال مرارة الصبر والتفكير في مناشئ الابتلاء وعواقبه للتوقِّي منها، وليتأسَّى بهم مَنْ يحمل عبء الدعوة بعدهم، فيتذرَّع بالصبر على المكاره، وتحمُّل المحن وشدائد الأزمات التي تقابلهم في طريق نشر الهدى والخير؛ وليعلموا أن الوصول إلى رضاء الله لا تبلِّغه أعمالهم، فكان لابد للدعاة إلى الله من حوافز تبعثهم على المزيد من الصبر والاحتمال ومقابلة السيئات بالحسنات، وهذا كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران].

قال ابن إسحاق في تفسيرها: أي أحسبتم أن تدخلوا الجنة فتصيبوا من ثوابي الكرامة، ولم أختبركم بالشدة والابتلاء بالمكاره حتى أعلم صدق ذلك منكم في الإيمان بي والصبر على ما أصابكم فيَّ.

وقول الله جل شأنه: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران] معناه: ولما تتثبت نفوسكم من الرضا بقضائي وقدري والصبر على بلائي؛ حتى يتجلَّى ذلك منكم وتظهر للناس آثاره ليقتدوا بكم؛ ولتكونوا معالم على طريق الهدى يسترشد بها أهل البلاء من عبادي، فيعجز الشيطان أن يسدَّ عليهم منافذ الركون إلى مناجاتي بطلب العفو من بلائي والرضا بقضائي.

هذه هي أصول الحِكم الربانية التي أنعم الله بها على عبده وحبيبه محمد ﷺ، وعلى عباده المجاهدين معه في غزوة أُحد التي كانت أعظم درس تربوي في تاريخ المجتمع المسلم، وهي جامعة لجوامع الفوائد التي لابد للمجتمع المسلم في مسيرته بالدعوة إلى الله من أن يمرَّ بها».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٣/ ٦١٩-٦٢٠].

ويقول د/ أبو خليل: «لقد جرت حكمة الله ﷻ أن الرسل تُبتلى، ثم تكون العاقبة لهم، ولو انتصروا دائمًا لدخل في المسلمين مَنْ ليس منهم، ولما تميَّز الصادق من غيره، فاقتضت الحكمة الجمع بين النصر وتأخيره ليتميَّز الصادق من الكاذب.

ولو قطع الله كل يد امتدت إلى رسول الله ﷺ في حينه، لما بقي إسلام بعده، فلا صبر لداعية، ولا تحمُّل لمسلم، ولقيل: إن الله لم ينتصر لنا كما انتصر لنبيِّه، فتحمُّله ﷺ أسوة وقدوة لتحمل الدعاة المجاهدين من بعده، فتأخير النصر في بعض المواطن حكمة، فهو لتربية النفوس، ولكسر شموخها وتعاظمها، فلما كان الابتلاء والامتحان، صبر المؤمنون، وجزع المنافقون.

كما أن أجْر كل نبيٍّ في التبليغ يكون على قدر ما ناله من المشقَّة الحاصلة له من المخالفين له، وعلى قدر ما يقاسيه منهم، وله أجر الهداية لمن أطاعه أيضًا، ولا أحد أكثر من نبينا ﷺ في ذلك، فلم يتفق لنبي من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ما اتفق له ﷺ من كثرة ما قاساه من قومه، ومن ثم بعد الصبر والجهاد، من كثرة ما أجابه من الأمم.

كما هيَّأ الله ﷻ لعباده المؤمنين الصادقين منازل في دار كرامته، فقيض لهم أسباب الابتلاء؛ ليصلوا إليها، بفضله ومنَّته أولًا، وبصبرهم وجهادهم واستشهادهم ثانيًا.

فالشهادة من أعلى مراتب المؤمنين المخلصين الصادقين، فساقهم الله إليها إكرامًا لهم، حيث اتخذ منهم شهداء، وكانوا يتمنَّون ذلك قبل لقاء العدو». [أُحد لأبي خليل١٢٨-١٢٩].

ويقول أ/ عبَّاد: «لو دام النصر هكذا لدخل الناس كلهم في الإسلام ظاهرًا، لا اقتناعًا بالحق ولكن انضمامًا إلى صفوف المنتصرين، وإذن لا يتميز المؤمن من المنافق، ولا يتبين من يعبد الله على حرف ممن يعبده في السراء والضراء، ولو دام النصر هكذا ما نال المجاهدون شرف التضحية ودرجة الشهادة، ولو دام النصر هكذا لداخل نفوس المؤمنين شيء من الزهو والغرور، ولو دام النصر هكذا ما انكشفت رؤوس الجريمة والفساد وما انكشف النفاق والمنافقون: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّا ٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران]. [مفاهيم تربوية من غزوة أُحد لعبَّاد ١٩٩-٢٠٠].

١٩ ـ العاقبة للمتقين:

يقول الشيخ المدري: «للحق جولة، وللباطل صولة، والعاقبة للتقوى، فلا تيأس من إصلاح المجتمع، ولا تقنط من هدايته، فقد صَبَرَ النبي ﷺ على الأذى والجراح، حتى دخل الناس أفواجًا في دين الله، إن عواقب الأمور كلها بيد الله، فامض في الدعوة، وداوم على الدعاء، وهداية البشر بيد خالق البشر.

أبو سفيان في أُحُد يقود المشركين، وشعاره: «اعـلُ هُبـل»، وفي فـتح مكـة يقـول: «لا إلـه إلا الله»، ووحشي يقتل حمزة ﷺ، ثم يُسلم ويقتل مُدعي النبوة مسيلمة الكذاب.

فاحذر على نفسك التقلب، «**فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيـف يشـاء**»، اسـأله دومًا دوام الثبات، والعبد وإن استغرق في العصيان، فالتوبة تحط الأوزار وإن بلغت العنان.

خالد بن الوليد يقود خيَّالة الكفر، وقُتِل على يديه فضلاء الصحابة، ولما شرح الله صدره للإسـلام، أتى يبايع النبي ﷺ، وقال: يا رسول الله، إني أشترط أن تُغفَر زلتي، فقال ﷺ: «**يا خالد، أمـا علمـت أن الإسلام يهدم ما قبله، وأن التوبة تجُبُّ ما قبلها**».

فأنقذ نفسك من وحل الأوزار، وأقبل على ربك تائبًا من الآثام، فالحسـنات يـذهبن السـيئات، ولا تستنكف عن التمسك بهذا الدين، فحوله سالت الدماء». [غزوة أحد للمدري ٣٤-٣٥].

٢٠ ـ استخراجُ عبوديةِ أوليائه وحزبِه في السَّراء والضرَّاء:

يقول ابن القيم في حِكَم أُحُد: «**ومنها: استخراجُ عبوديةِ أوليائه وحزبِه في السَّراء والضرَّاء، وفيما يُحبُّون وما يكرهون، وفي حال ظَفَرِهم وظفر أعدائهم بهم**، فإذا ثبتُوا على الطاعة والعبودية فيما يُحبون وما يكرهون، فهم عبيدهُ حقًّا، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد مِن السَّراء والنعمة والعافية». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ١٩٨].

٢١ ـ التضحية من أجل الدين:

يقول الشيخ المدري: «إن سنة الله ـ جل وعلا ـ قد مضت أن هذا الدين لا يتحقـق في واقـع الحيـاة، ولا يثبت على هذه الأرض، ولا تعلو رايته خفاقة فوق البقاع، ولا يتحقق منهجه بين النـاس إلا بجهـد من أبناء هذا الدين يسبقه ويرافقه ويعقبه توفيق من الله ﷻ.

إن هذا الدين لابد له من علم يُنشر، ودعوة تبذل، وأموال تُنفق، ومهج وأرواح تُزهق في سبيل الله ﷻ، إنه ليس أمرًا هينًا، إنها الرسالة العظيمة الخالدة، إنها الأمانة الكبيرة الماجدة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[الأحزاب].

ويخاطب الله جل وعلا نبيه ﷺ فيقول: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾[المزمل].

إنها أمانة هذا الدين والرسالة الخاتمة من رب العالمين، الدين الذي ارتضـاه الله ﷻ للنـاس أجمعـين، حتى يرث الله الأرض ومن عليها يوم يقوم الناس لرب العالمين.

هذه الرسالة العظيمة، وهذا الدرس الكريم نقف مع ومضات منـه لنـرى صـورته في غـزوة أحـد، ولست معنيًّا بالوقوف مع الأحداث وترتيبها، وإنما نأخذ هذا الدرس الواضـح الجـلي في هـذه المعركـة

العظيمة من معارك الإسلام الخالدة التي قادها محمد ﷺ برفقة الصحب الكرام الغر الميامين الأبطال الشجعان رضوان الله عليهم أجمعين.

أنس بن النضر ﷺ يُصاب في هذه الغزوة ببضع وثمانين جراحة، ثم مُثِّل به بعدها، فلم يعرفه أحد سوى أخته عرفته ببنانه.

وفي سعد بن الربيع ﷺ سبعون طعنة، و قتل مصعب بن عمير ﷺ، فلم يوجد له ما يُكفن فيه إلا بردة، واستشهد حمزة ﷺ عم النبي ﷺ، واستشهد سبعون من خيرة الصحابة الكرام.

فماذا قَدَّمنا لديننا؟؟ وللصحابة الكرام الصُحبة والسبق والإقدام، تقطعت منهم الأشلاء، وتمزقت الأجساد، وترمل النساء، قدَّموا أرواحهم فداء لهذا الدين، حتى وصل إلينا كاملًا متمَّمًا، فاقدر لهم قدرهم، واشكر لهم سعيهم، وترض عنهم، فقد أحبهم ربهم، رضي الله عنهم وأرضاهم».

[غزوة أحد للمدري ٣٢-٣٤].

٢٢ ـ الله ﷻ المدبر لأمر عباده، وحكمة تبدل الأحوال:

يقول ابن القيم في حكم أُحُد: «**فإنه سبحانه لو نصرهم دائمًا، وأظفرهم بعدوِّهم في كُلِّ موطن، وجعل لهم التَّمْكِينَ والقهرَ لأعدائهم أبدًا، لطغتْ نفوسُهم، وشمخت وارتفعت**، فلو بسط لهم النصرَ والظفرَ، لكانُوا في الحال التي يكونون فيها لو بَسَطَ لهم الرِّزْقَ، فلا يُصْلِحُ عِباده إلا السَّراءُ والضَّراءُ، والشدةُ والرخاءُ، والقبضُ والبسطُ، فهو المدبِّرُ لأمر عباده كما يليقُ بحكمته، إنه بهم خبير بصير.

وأنه إذا امتحنهم بالغَلَبَةِ، والكَسْرَةِ، والهزيمة، ذلُّوا وانكسَروا، وخضعُوا، فاستوجبوا منه العِزَّ والنَّصْرَ، فإن خِلعة النصر إنما تكونُ مع ولاية الذُّلِّ والانكسارِ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾[التوبة: ٢٥]، فهو سبحانه إذا أراد أن يُعِزَّ عبدَه، ويجبُرَه، وينصُرَه، كسره أوَّلًا، ويكونُ جبرُه له ونصره، على مِقدار ذُلِّه وانكساره.

وأنه سبحانه هيَّأ لعباده المؤمنين منازِلَ في دار كرامته، لم تبلُغْها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنةِ، فقيَّض لهم الأسبابَ التي تُوصِلُهُم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

وأن النفوسَ تكتسِبُ من العافية الدائمة والنصر والغنى طغيانًا ورُكونًا إلى العاجلة، وذلك مرض يَعُوقُها عن جِدِّها في سيرها إلى الله والدارِ الآخرة، فإذا أراد بها ربُّهَا ومالِكُهَا وراحِمُهَا كرامته، قيَّض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه؛ فيكون ذلك البلاء

والمحنة بمنزلة الطبيب يسقي العليلَ الدواءَ الكريه، ويقطع منه العروقَ المؤلمةَ لاستخراج الأدواء منه، ولو تركه، لَغَلَبَتْهُ الأدواءُ حتى يكون فيها هلاكه». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ١٩٨-١٩٩].

٢٣ ـ فضل شهيد العقيدة:

يقول ابن القيم: «**إن الشهادة عند الله ﷻ من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه والمقرَّبون من عباده، وليس بعد درجة الصِّدِّيقيَّة إلا الشهادةُ**، وهو سبحانه يُحب أن يتَّخِذَ مِن عباده شهداءَ، تُراقُ دماؤهم في محبته ومرضاته، ويُؤْثرونَ رضاه ومحابَّه على نفوسهم، ولا سبيلَ إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ١٩٩].

٢٤ ـ إهلاك الأعداء بعد ازدياد بغيهم:

يقول ابن القيم في حكم أُحُد: «**ومنها: أن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم، قيَّض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم**، ومن أعظمها بعد كفرهم بغيهم، وطغيانهم، ومبالغتهم في أذى أوليائه، ومحاربتهم، وقتالهم، والتسلط عليهم، فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم.

وقد ذكر ﷻ ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران]، فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم، وإحياء عزائمهم وهممهم، وبينَ حُسنِ التسلية، وذِكر الحِكمِ الباهِرَة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم فقال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فقد استويتُم في القرح والألَم، وتباينتم في الرجاء والثواب، كما قال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء]، فما بالكم تَهِنُونَ وتضعُفُون عند القرحِ والألم، فقد أصابهم ذلك في سبيلِ الشيطان، وأنتم أُصِبتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي.

ثم أخبرَ أنه يُدَاوِلُ أيامَ هذه الحياة الدنيا بين الناسِ، وأنها عَرَضٌ حاضِر، يقسمها دُوَلًا بين أوليائه وأعدائِهِ بخلاف الآخِرةِ، فإن عزَّها ونصرَها ورجاءَها خالصٌ للذين آمنُوا.

ثم ذكر حِكمة أُخرى، وهى أن يتميَّزَ المؤمنون من المنافقين، فيعلمُهم عِلمَ رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومِين في غيبه، وذلك العلم الغيبي لا يترتَّب عليه ثوابٌ ولا عقاب، وإنَّما يترتب الثوابُ والعقابُ على المعلوم إذا صار مشاهدًا واقعًا في الحسِ.

ثم ذكر حِكمة أُخرى، وهى اتخاذُه سبحانه منهم شهداء، فإنه يُحبُّ الشهداء من عباده، وقد أعَدَّ لهم أعلى المنازل وأفضلَها، وقد اتخذهم لنفسه، فلا بدَّ أن يُنِيلَهم درجة الشهادة.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾[آل عمران]، تنبيه لطيفُ الموقِع جدًّا على كراهته وبغضه للمنافقين الذين انخَذَلُوا عن نبيه يومَ أُحُد، فلم يشهدوه، ولم يَتَّخِذْ منهم شهداء؛ لأنه لم يُحبهم، فأركَسَهم وردَّهُم لِيَحْرِمَهُم ما خصَّ به المؤمنين في ذلكَ اليوم، وما أعطاهُ مَن استُشهِدَ منهم، فثبط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي وفق لها أولياءَهُ وحِزبه.

ثم ذكر حِكمة أُخرى فيما أصابهم ذلك اليوم، وهو تمحيص الذين آمنوا، وهو تنقيتُهم وتخليصُهم من الذنوب، ومن آفاتِ النفوس، وأيضًا فإنه خلَّصهم ومحَّصهم من المنافقين، فتَمَيَّزوا منهم، فحصل لهم تمحيصان: تمحيص من نفوسهم، وتمحيص ممن كان يُظهِرُ أنه منهم، وهو عدوُّهم.

ثم ذكر حِكمة أخرى، وهى محقُّ الكافرين بطغيانهم، وبغيهم، وعُدوانهم، ثم أنكر عليهم حُسبانَهم، وظنَّهُم أن يدخلُوا الجنَّة بدون الجهاد في سبيله، والصبرِ على أذى أعدائه، وإن هذا ممتنع بحيثُ يُنْكَرُ على مَن ظنه وحَسِبَه، فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[آل عمران]، أي: ولما يَقَعْ ذلِكَ منكم، فيعلمه، فإنه لو وقع، لعلمه، فجازاكم عليه بالجنة، فيكونَ الجزاء على الواقع المعلوم، لا على مجرد العلم، فإن الله لا يجزى العبدَ على مجرد علمه فيه دون أن يقعَ معلومُه، ثم وبَّخهم على هزيمتهم مِن أمر كانوا يتمنَّونه ويودُّون لِقاءه، فقال: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾[آل عمران].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة، رغبوا في الشهادة، فتمنوا قتالًا يستشهدُونَ فيه، فيلحقُونَ إخوانَهم، فأراهم الله ذلك يوم أُحُد، وسبَّبه لهم، فلم يَلبَثُوا أن انهزموا إلا مَن شاء الله منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾[آل عمران]». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ١٩٩-٢٠١].

ويقول أ/ عبَّاد: «أليس انتصار أهل الشرك في أحد دليلًا على صحة اتجاههم؟ وأليست نجاة المنافقين من الموت أو القتيل دليلًا على بُعد نظرهم في عدم المشاركة في المعركة ودليلًا على سلامة وصحة اتجاههم؟

هذه التساؤلات ترد عليها الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران] إن الآية تعالج الشبهة التي تجول في بعض القلوب الضعيفة بتلك التساؤلات، وما يجعل ضعاف الإيمان يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، فيحسبون أن

الله سبحانه لا يتدخل في المعركة بين الحق والباطل؛ لذا فالله بين لهم أن إملاءه سبحانه للمبطلين الظلمة الطغاة المفسدين ليس خيرًا لهم بل هو شر مستطير، فهو سبحانه يعطيهم حظًّا في الدنيا يستمتعون به ويلهون فيه، وهذا فتنة وكيد استدراج؛ لأنهم لو كانوا يستحقون أن يخرجهم الله من غمرة النعمة بالابتلاء الموقظ لابتلاهم، ولكنه سبحانه لا يريد بهم خيرًا، فتركهم يعبون من الإثم عبًّا وتتراكم عليهم الانحرافات فينالهم العقاب العادل وهو العذاب المهين.

وفي حديث ابن مسعود ﷺ قال: «**وَالَّذِي لا إِلَه غَيْرُه مَا عَلَى الأَرْضِ نَفْسٌ إِلَّا المَوْتُ خَيْرٌ لها، إِنْ كَان مُؤْمِنًا، فَإِنَّ الله يَقُولُ:** ﴿لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران]، **وإِنْ كَان فَاجِرًا فَإِنَّ الله يَقُولُ:** ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران].

[المستدرك للحاكم ٢/ ٣٢٦كتاب التفسير (٣١٦٨)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، والمصنف لابن أبي شيبة كتاب الزهد باب كلام ابن مسعود ﷺ ١٩/ ١٧٥ تح الشيخ عوامة].

هكذا يتضح أن الابتلاء نعمة من الله لا تصيب إلا من يريد الله به الخير، فإذا أصابت أولياءه فإنما تصيبهم لخير يريده الله لهم، ولو وقع الابتلاء مترتبًا على تصرفات هؤلاء الأولياء فهناك الحكمة المعنية، والتدبير اللطيف، وفضل الله على أوليائه المؤمنين.

وهكذا تستقر القلوب وتطمئن النفوس وتستقر الحقائق الأصيلة بأن الله إن مكَّن الكفار من المؤمنين وأبقى المنافقين دون عقوبة فكل هذا لحكمة لا يعلمها إلا هو». [مفاهيم تربوية من غزوة أُحد لعبَّاد ٢٠٠-٢٠١].

٢٥ ـ الإعداد لموت النبي ﷺ:

يقول ابن القيم في حكم أُحُد: «**ومنها: أن وقعةَ أُحُدٍ كانت مُقَدِّمَةً وإرهاصًا بين يدي موتِ رسول الله ﷺ، فثبَّتهم**، ووبَّخهم على انقلابهم على أعقابهم أَنْ ماتَ رسولُ الله ﷺ، أو قُتِلَ، بل الواجبُ له عليهم أن يثبتُوا على دِينه وتوحِيدِهِ ويموتوا عليه، أو يُقتلُوا، فإنهم إنما يعبدُون ربَّ محمد ﷺ، وهو حيٌّ لا يموت، فلو ماتَ محمد ﷺ أو قُتِلَ، لا ينبغي لهم أن يَصْرِفَهم ذلِكَ عن دينه، وما جاء به، فكلُّ نفسٍ ذائِقةُ الموت، وما بُعِثَ محمد ﷺ لِيُخلَّد لا هُوَ ولا هُم، بل لِيمُوتُوا على الإسلامِ والتَّوحيدِ، فإن الموت لا بُدَّ منه، سواء ماتَ رسول الله ﷺ أو بَقِيَ؛ ولهذا وبَّخَهُم على رجوع مَنْ رجع منهم عن دينه لما صرخ الشَّيْطَانُ: إنَّ محمدًا قد قُتِلَ، فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران]، والشاكرون: هم الذين عرفوا قدر النعمة، فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قُتِلُوا، فظهر أثرُ هذا العِتَابِ، وحكمُ هذا الخطاب

يومَ مات رسولُ الله ﷺ، وارتدَّ مَن ارتدَّ على عقبيه، وثبت الشاكِرُون على دينهم، فنصرهم الله وأعزَّهم وظفَّرهم بأعدائهم، وجعل العاقبة لهم.

ثم أخبر سبحانه أنه جعل لكل نفس أجلًا لا بُدَّ أن تستوفيه، ثم تلحَقَ به، فيَرِدُ الناسُ كُلُّهم حوضَ المنايا مَوْرِدًا واحِدًا، وإن تنوَّعت أسبابه، ويصدُرونَ عن موقف القِيامة مصادِرَ شتَّى، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير.

ثم أخبر سبحانه أن جماعةً كثيرةً من أنبيائه قُتِلُوا وقُتِلَ معهم أتباعٌ لهم كثيرون، فما وَهَنَ مَنْ بقيَ منهم لِما أصابهم في سبيله، وما ضَعُفُوا، وما استكانُوا، وما وَهَنُوا عندَ القتل، ولا ضعفُوا، ولا استكانوا، بل تَلَقَّوا الشهادةَ بالقُوَّةِ، والعزيمةِ، والإقْدَام، فلم يُسْتَشْهَدُوا مُدْبِرينَ مستكينين أذلةً، بل استُشْهِدُوا أعزَّةً كِرامًا مقبلينَ غير مدبرين، والصحيح: أن الآية تتناول الفريقين كليهما». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢٠١-٢٠٢].

٢٦ ـ ما استنصرت به الأنبياءُ وأُممهم:

يقول ابن القيم: «ثم أخبر سُبحانه عما استنصرت به الأنبياءُ وأُممهم على قومهم من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم، أن يُثَبِّت أقدامَهم، وأن ينصُرَهم على أعدائهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران]، لما علم القومُ أن العدو إنما يُدَالُ عليهم بذنوبهم، وأن الشيطانَ إنما يستزِلُّهم ويهزِمُهم بها، وأنها نوعان: تقصيرٌ في حق أو تجاوزٌ لحد، وأن النصرةَ منوطة بالطاعة، قالُوا: ربنا اغفِرْ لنا ذنوبَنا وإسرافَنَا في أمرنا، ثم عَلِمُوا أن ربَّهم تبارك وتعالى إن لم يُثَبِّتْ أقدامَهم ويَنْصُرْهم، لم يَقْدِرُوا هُم على تثبيتِ أقدامِ أنفسهم، ونصرها على أعدائهم، فسألوه ما يعلمون أنَّهُ بيده دُونهم، وأنه إن لم يُثَبِّتْ أقدامَهم وينصرهم لم يثبتُوا ولم ينتصِرُوا، فَوَفَّوا المَقَامَيْنِ حقَّهما: مقامَ المقتضى، وهو التوحيد والالتجاء إليه سبحانه، ومقامَ إزالةِ المانع من النصرة، وهو الذنوبُ والإسرافُ، ثم حذَّرهم سبحانه مِن طاعة عدوِّهم، وأخبر أنَّهم إن أطاعوهم خَسِرُوا الدنيا والآخِرَة، وفي ذلك تعريضٌ بالمنافقينَ الذين أطاعوا المشركين لما انتصروا وظفِروا يومَ أُحُد.

ثم أخبر سبحانه أنه مولى المؤمنين، وهو خير الناصرين، فمَن والاه فهو المنصور.

ثم أخبرهم أنه سيُلقي في قلوب أعدائهم الرعب الذي يمنعهم من الهُجُومِ عليهم، والإقدام على حربهم، وأنَّه يُؤيِّد حزبَه بجند مِن الرعب ينتصِرونَ به على أعدائهم، وذلك الرعبُ بسبب ما في قلوبهم مِن الشركِ بالله، وعلى قدرِ الشركِ يكون الرعبُ، فالمشركُ بالله أشدُّ شيءٍ خوفًا ورُعبًا، والذين آمنوا ولم يَلبِسُوا إيمانَهم بالشِّرْكِ، لهم الأمنُ والهُدى والفلاحُ، والمشركُ له الخوفُ والضلالُ والشقاءُ.

ثم أخبرهم أنه صَدَقَهُمْ وعدَه في نُصرتهم على عدوهم، وهو الصادقُ الوعد، وأنهم لو استمرُّوا على الطاعةِ، ولزوم أمر الرسول ﷺ لاستمرَّت نُصرتهم، ولكن انخلعوا عن الطاعة، وفارقُوا مركزهم، فانخلعوا عن عصمة الطاعة، ففارقتهم النصْرَةُ، فصرفهم عن عدوهم عقوبةً وابتلاءً، وتعريفًا لهم بسوء عواقِب المعصيةِ، وحُسنِ عاقبة الطاعة.

ثم أخبر أنه عَفَا عنهم بعد ذلك كُلِّه، وأنه ذو فضلٍ على عباده المؤمنين.

قيل للحسن: كيف يعفو عنهم، وقد سلَّط عليهم أعداءَهم حتى قَتلُوا منهم مَن قَتلوا، ومَثَّلُوا بهم، ونالُوا منهم مَا نالوه؟ فقال: لولا عفوُه عنهم، لاستأصلَهم، ولكن بعفوه عنهم دَفَعَ عنهم عدوَّهم بعد أن كانوا مُجمعين على استئصالهم.

ثمَّ ذكَّرهم بحالهم وقتَ الفرارِ مُصعدينَ، أي: جادِّين في الهربِ والذهاب في الأرضِ، أو صاعدين في الجبلِ لا يَلوونَ على أحدٍ من نبيهم ولا أصحابهم، والرسولُ ﷺ يدعوهم في أُخراهم: «**إليَّ عِبَادَ الله، أَنَا رسُولُ الله**»، فأثابهم بهذا الهرب والفرارِ، غمًّا بعدَ غَمٍّ: غمَّ الهزيمة والكسرةِ، وغمَّ صرخةِ الشيطان فيهم بأن محمدًا ﷺ قد قُتل.

وقيل: جازاكم غمًّا بما غممتُم رسولَه بفراركم عنه، وأسلمتمُوه إلى عدوِّهِ، فالغمُّ الذي حصل لكم جزاءً على الغمِّ الذي أوقعتموه بنبيه، والقولُ الأولُ أظهر لوجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران] تنبيهٌ على حِكمة هذا الغم بعدَ الغمِّ، وهو أن يُنسيَهم الحزنَ على ما فاتهم مِن الظفر، وعلى ما أصابهم مِن الهزيمةِ والجِراحِ، فنسُوا بذلك السبب، وهذا إنما يحصُل بالغمِّ الذي يعقُبُه غمٌّ آخر.

الثاني: أنه مطابق للواقع، فإنَّه حَصَلَ لهم غمُّ فواتِ الغنيمة، ثم أعقبه غمُّ الهزيمةِ، ثم غمُّ الجراح التي أصابتهم، ثم غَمُّ القتلِ، ثم غَمُّ سماعِهم أن رسولَ الله ﷺ قد قُتِلَ، ثم غَمُّ ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم، وليس المراد غمَّين اثنين خاصة، بل غمًّا متتابعًا لتمام الابتلاء والامتحان.

الثالث: أن قوله: ﴿بِغَمٍّ﴾، من تمام الثوابِ، لا أنه سببُ جزاء الثواب، والمعنى: أثابكم غمًّا متَّصِلًا بغمٍّ، جزاءً على ما وقع منهم من الهروب وإسلامهم نبيَّهم ﷺ وأصحابه، وتركِ استجابتهم له وهو يدعوهم، ومخالفتهم له في لزومِ مركزهم، وتنازعِهم في الأمر، وفشلهم، وكُلُّ واحد من هذه الأمور يُوجب غمًّا يخصُّه، فترادفت عليهم الغمومُ كما ترادفت منهم أسبابُها وموجباتُها، ولولا أن تداركهم بعفوِه، لكان أمرًا آخَرَ.

وَمِن لطفه بهم، ورأفته، ورحمته، أن هذه الأمور التي صدرت منهم، كانت من موجبات الطباع، وهى من بقايا النفوس التي تمنع من النصرة المستقرة، فقيَّض لهم بلطفه أسبابًا أخرجها من القوة إلى الفعل، فترتَّب عليها آثارُها المكروهة، فعلموا حينئذ أن التوبةَ منها والاحترازَ مِن أمثالها، ودفعها بأضدادها أمرٌ متعيَّنٌ، لا يتم لهم الفلاحُ والنصرةُ الدائمة المستقرة إلا به، فكانوا أشدَّ حذرًا بعدها، ومعرفة بالأبوابِ التي دخل عليهم منها.

ورُبَّمَا صَحَّتِ الأَجْسَامُ بِالعِلَلِ.

[زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢٠٢-٢٠٤].

٢٧ ـ حسن الظن بالله ﷻ:

يقول ابن القيم: «ثم إنه تداركهم سُبحانه برحمته، وخفَّف عنهم ذلك الغَمَّ، وغيَّبه عنهم بالنُّعاسِ الذي أنزله عليهم أمنًا منه ورحمة، والنعاسُ في الحرب علامةُ النصرة والأمنِ، كما أنزله عليهم يومَ بدر، وأخبر أن مَن لم يُصبْه ذلك النعاسُ، فهو ممن أهمته نفسُه لا دِينُه ولا نبيُّه ولا أصحابُه، وأنهم يظنون بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ الجاهلية.

وقد فُسِّرَ هذا الظنُّ الذي لا يليقُ بالله، بأنه سبحانه لا ينصُرُ رسولَه، وأن أمْرَهُ سيضمحِلُّ، وأنه يُسلِمُه للقتل، وقد فُسِّرَ بظنهم أن ما أصابَهم لم يكن بقضائه وقدره، ولا حِكمة له فيه، ففسر بإنكارِ الحِكمة، وإنكارِ القدر، وإنكارِ أن يُتمَّ أمرَ رسوله ويُظْهِرَه على الدِّين كُلِّه، وهذا هو ظنُّ السَّوْءِ الذي ظَنَّهُ المنافقُونَ والمشرِكُونَ به سبحانه وتعالى في (سورة الفتح) حيث يقول: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح]، وإنما كان هذا ظنَّ السَّوْءِ، وظنَّ الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظنَّ غير الحق؛ لأنه ظنَّ غير ما يليق بأسمائه الحسنى، وصفاتِهِ العُليا، وذاتِه المبرَّأة من كُلِّ عيبٍ وسوء، بخلافِ ما يليقُ بحكمته وحمدِه، وتفرُّدِهِ بالربوبية والإلهيَّة، وما يَليق بوعده الصادِق الذي لا يُخلِفُهُ، وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصُرُهم ولا يخذُلُهم، ولجنده بأنهم هُمُ الغالبون، فمَن ظنَّ بأنه لا ينصرُ رسولَه، ولا يُتِمُّ أمرَه، ولا يؤيِّده، ويؤيدُ حزبه، ويُعليهم، ويُظفرهم بأعدائه، ويُظهرهم عليهم، وأنه لا ينصرُ دينه وكتابه، وأنه يُديل الشركَ على التوحيدِ، والباطلَ على الحقِّ إدالة مستقرة يضمحِلُّ معها التوحيد والحق اضمحلالًا لا يقوم بعده أبدًا، فقد ظنَّ بالله ظن السَّوْءِ، ونسبه إلى خلاف ما يليقُ بكماله وجلاله، وصفاته ونعوته، فإنَّ حمدَه وعِزَّته، وحِكمته وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يُذَلَّ حزبُه وجندُه، وأن تكون النصرةُ المستقرة، والظفرُ الدائم لأعدائه المشركين به، العادلين به، فَمن ظنَّ به ذلك، فما عرفه، ولا عرف أسماءَه، ولا عرف صفاتِه وكماله، وكذلك مَن أنكر أن

يكونَ ذلك بقضائه وقدره، فما عرفه، ولا عرف ربوبيَّته، وملكه وعظمتَه، وكذلك مَن أنكر أن يكون قدَّر ما قدَّره من ذلك وغيره لحِكمة بالغة، وغاية محمودة يستحقُّ الحمدَ عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردةٍ عن حكمة، وغايةٍ مطلوبة هي أحبُّ إليه من فوتها، وأن تلك الأسبابَ المكروهةَ المفضية إليها لا يخرج تقديرُها عن الحكمةِ لإفضائِهَا إلى ما يُحِبُّ، وإن كانت مكروهة له، فما قدَّرها سُدى، ولا أنشأها عبثًا، ولا خلقها باطلًا، ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧﴾[ص].

وأكثرُ النَّاسِ يظنون بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ السَّوءِ فيما يختصُّ بهم وفيما يفعلُه بغيرهم، ولا يسلَمُ عن ذلك إلا مَن عرف الله، وعرف أسماءَه وصفاتِه، وعرفَ موجبَ حمدِهِ وحكمته:

فمَن قَنِطَ مِن رحمته، وأيسَ مِن رَوحه، فقد ظن به ظنَّ السَّوء.

ومَن جوَّز عليه أن يعذِّبَ أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم، ويُسوِّي بينهم وبين أعدائه، فقد ظَنَّ به ظَنَّ السوءِ.

ومَنْ ظَنَّ بِهِ أن يترُكَ خلقه سُدى، معطَّلينَ عن الأمر والنهي، ولا يُرسل إليهم رسله، ولا ينزِّل عليهم كتبه، بل يتركهم هَمَلًا كالأنعام، فقد ظَنَّ به ظنَّ السَّوء.

ومَنْ ظَنَّ أَنَّهُ لن يجمع عبيدَه بعد موتِهم للثوابِ والعِقاب في دار يُجازي المحسنَ فيها بإحسانه، والمسيءَ بإساءته، ويبيِّنُ لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهرُ للعالمين كلِّهم صدقَه وصدقَ رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين، فقد ظنَّ به ظن السَّوءِ.

ومَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُضَيِّعُ عليه عملَه الصالحَ الذي عملَه خالصًا لوجهه الكريمِ على امتثال أمره، ويُبطِلَه عليه بلا سبب من العبد، أو أنه يُعاقِبُه بما لا صُنعَ فيه، ولا اختيار له، ولا قدرةَ، ولا إرادة في حصوله، بل يُعاقبه على فعله هو سبحانه به.

أو ظنَّ بِهِ أنه يجوزُ عليه أن يؤيِّدَ أعداءَه الكاذبين عليه بالمعجزاتِ التي يؤيِّدُ بها أنبياءه ورسله، ويُجرِيها على أيديهم يُضِلُّونَ بها عباده، وأنه يحسُن منه كُلُّ شيء حتى تعذيبُ مَن أفنى عمره في طاعته، فيخلدُه في الجحيم أسفلَ السافلينَ، ويُنعِمُ مَن استنفد عُمُرَه في عداوته وعداوة رسله ودينه، فيرفعه إلى أعلى عليين، وكلا الأمرين عنده في الحسن سواء، ولا يُعرف امتناعُ أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق، وإلا فالعقل لا يقضي بقُبح أحدهما وحُسنِ الآخر، فقد ظَنَّ به ظَنَّ السَّوْء.

ومَنْ ظَنَّ بِهِ أنه أخبرَ عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل، وتشبيه، وتمثيل، وترك الحقَّ، لم يُخبر به، وإنما رَمزَ إليه رموزًا بعيدة، وأشار إليه إشاراتٍ مُلغِزةً لم يُصرِّح به، وصرَّح دائمًا بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد مِن خلقه أن يُتعِبُوا أذهانَهم وقُواهم وأفكارَهم في تحريفِ كلامه عن مواضعه، وتأويلِهِ

على غير تأويله، ويتطلَّبوا له وجوهَ الاحتمالات المستكرهة، والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالكشف والبيان، وأحالهم في معرفة أسمائِه وصفاتِه على عقولهم وآرائهم، لا على كتابِه، بل أراد منهم أن لا يحمِلوا كلامَه على ما يعرِفُون من خطابهم ولغتهم، مع قدرته على أن يُصَرِّحَ لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، ويُريحَهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل، فلم يفعل، بل سلك بهم خلافَ طريق الهدى والبيان، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْءِ، فإنه إن قال: إنه غيرُ قادر على التعبير عن الحقِّ باللَّفظ الصريح الذي عبَّر به هو وسلفُه، فقد ظن بقُدرته العجز، وإن قال: إنه قادِرٌ ولم يُبيِّن، وعدَلَ عن البيان، وعن التصريح بالحقِّ إلى ما يُوهم، بل يُوقِعُ في الباطل المحال، والاعتقاد الفاسد، فقد ظنَّ بحكمته ورحمته ظَنَّ السَّوءِ، وظنَّ أنه، هو وسلفُه عبَّروا عن الحقِّ بصريحه دُونَ الله ورسوله، وأن الهُدى والحقَّ في كلامهم وعباراتهم، وأما كلام الله، فإنما يؤخذ مِن ظاهره التشبيه، والتمثيل، والضلال، وظاهِر كلام المتهوِّكين الحيارى، هو الهُدى والحق، وهذا من أسوأ الظن بالله، فَكُلُّ هؤلاء من الظانين بالله ظن السَّوْءِ، ومن الظانين به غير الحق ظن الجاهلية.

ومَنْ ظَنَّ بِهِ أن يكونَ في مُلكه ما لا يشاء ولا يَقْدِرُ على إيجاده وتكوينه، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْءِ.

ومَنْ ظَنَّ بِهِ أنه كان مُعَطَّلًا مِن الأزل إلى الأبدِ عن أن يفعلَ، ولا يُوصفُ حينئذ بالقُدرة على الفعل، ثم صارَ قادرًا عليه بعد أن لم يكن قادرًا، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْءِ.

ومَنْ ظَنَّ بِهِ أنه لا يَسمعُ ولا يُبصِرُ، ولا يعلمُ الموجودات، ولا عَدد السماواتِ والأرضِ، ولا النجوم، ولا بني آدمَ وحركاتِهم وأفعالهم، ولا يعلم شيئًا من الموجودات في الأعيان، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْءِ.

ومَنْ ظَنَّ أنه لا سمعَ له، ولا بصرَ، ولا عِلم له، ولا إرادة، ولا كلامَ يقولُ به، وأنه لم يُكلِّم أحدًا من الخلق، ولا يتكلَّمُ أبدًا، ولا قال ولا يقولُ، ولا له أمرٌ ولا نهي يقومُ به، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْءِ.

ومَنْ ظَنَّ بِهِ أنه فوقَ سماواتِه على عرشه بائنًا من خلقه، وأن نِسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنِسبتها إلى أسفلِ السافلين، وإلى الأمكنة التي يُرغب عن ذكرها، وأنه أسفلُ، كما أنه أعلى، فقد ظنَّ به أقبحَ الظنِّ وأسوأه.

ومَنْ ظَنَّ بِهِ أنه يُحِبُّ الكفر، والفسوقَ، والعِصيانَ، ويحبُّ الفسادَ كما يُحبُّ الإيمان، والبر، والطاعة، والإصلاح، فقد ظنَّ به ظن السَّوْءِ.

ومَنْ ظَنَّ بِهِ أنه لا يُحبُّ ولا يَرضى، ولا يَغضب ولا يَسخط، ولا يُوالي ولا يُعادي، ولا يقرب من أحد من خلقه، ولا يقرُب منه أحد، وأن ذواتِ الشياطين في القُرب مِن ذاته كذوات الملائكة المقرَّبين وأوليائه المفلحين، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْءِ.

ومَنْ ظَنَّ أنه يُسوِّي بين المتضادَّيْن، أو يفرِّق بين المتساويين من كل وجه، أو يُخْبِطُ طاعاتِ العمر المديد الخالصةَ الصوابَ بكبيرة واحدة تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات في النار أبدَ الآبدين بتلك الكبيرة، ويُحبطُ بها جميع طاعاته ويُخَلِّدُه في العذاب، كما يخلد مَن لا يؤمن به طرفة عين، وقد استنفد ساعاتِ عمره في مساخِطه ومعاداة رسله ودينه، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْءِ.

وبالجملة.. **فمَن ظنَّ به خِلاَفَ ما وصف به نَفسه ووصفه به رسله، أو عطَّل حقائقَ ما وصف به نفسه، ووصفته به رُسله، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْءِ.**

ومَنْ ظَنَّ أن له ولدًا، أو شريكًا أو أن أحدًا يشفعُ عنده بدون إذنه، أو أن بينَه وبين خلقه وسائطَ يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه نَصَبَ لعباده أولياء مِن دونه يتقرَّبون بهم إليه، ويتوسلون بهم إليه، ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه، فيدعونهم، ويحبونهم كحبه، ويخافونهم ويرجونهم، فقد ظنَّ به أقبحَ الظن وأسوأه.

ومَنْ ظَنَّ بِهِ أنه ينالُ ما عنده بمعصيته ومخالفته، كما يناله بطاعته والتقربِ إليه، فقد ظنَّ به خلافَ حِكمته وخلاف موجب أسمائه وصفاته، وهو من ظن السَّوْءِ.

ومَنْ ظَنَّ بِهِ أنه إذا ترك لأجله شيئًا لم يُعوِّضه خيرًا منه، أو مَن فعل لأجله شيئًا لم يُعطه أفضلَ منه، فقد ظنَّ به ظن السَّوْءِ.

ومَنْ ظَنَّ بِهِ أنه يغضبُ على عبده، ويُعاقبه ويحرمه بغير جُرم، ولا سبب من العبد إلا بمجرد المشيئة، ومحض الإرادة، فقد ظنَّ به ظن السَّوْءِ.

ومَنْ ظَنَّ بِهِ أنه إذا صدقه في الرغبة والرهبة، وتضرَّع إليه، وسأله، واستعان به، وتوكَّل عليه أنه يُخيِّبُه ولا يُعطيه ما سأله، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ، وظنَّ به خلافَ ما هو أهلُه.

ومَنْ ظَنَّ بِهِ أنهُ يُثيبه إذا عصاه بما يُثيبه به إذا أطاعه، وسأله ذلك في دعائه، فقد ظنَّ به خلافَ ما تقتضيه حِكمتُه وحمده، وخلافَ ما هو أهلُه وما لا يفعله.

ومَنْ ظَنَّ بِهِ أنه إذا أغضبه، وأسخطه، وأوضع في معاصيه، ثم اتخذ من دونه وليًّا، ودعا مِن دونه مَلَكًا أو بَشَرًا حَيًّا، أو ميتًا يرجُو بذلك أن ينفَعَه عند ربِّه، ويُخَلِّصَه مِن عذابه، فقد ظنَّ به ظَنَّ السَّوْءِ، وذلك زيادة في بُعْدِه من الله، وفي عذابه.

ومَنْ ظَنَّ بِهِ أنه يُسلِّطُ على رسولِهِ محمَّدٍ ﷺ أعداءَهُ تسليطًا مستَقِرًّا دائمًا في حياته وفي مماته، وابتلاه بهم لا يُفارقونه، فلما مات استبدُّوا بالأمر دون وَصِيَّه، وظلمُوا أهلَ بيتِهِ، وسلبُوهم حقَّهُم، وأذلُّوهم، وكانت العزَّةُ والغلبةُ والقهرُ لأعدائِه وأعدائِهم دائمًا مِن غير جرم ولا ذنب لأوليائه، وأهل الحق، وهو

يرى قهرَهم لهم، وغصبهم إياهم حقَّهم، وتبديلَهم دِينَ نبيهم، وهو يقدر على نُصرة أوليائه وحزبه وجنده، ولا ينصُرُهم ولا يُديلهم، بل يُديل أعداءهم عليهم أبدًا، أو أنَّه لا يقدِرُ على ذلكَ، بل حصل هذا بغير قُدرته ولا مشيئته، ثم جعل المبدلين لدينه مضاجعيه في حفرته، تُسَلِّمُ أُمتُه عليه وعليهم كل وقت كما تظنه الرافضةُ، فقد ظنَّ به أقبحَ الظنِّ وأسوأه، سواءً قالوا: إنه قادرٌ على أن ينصرَهم، ويجعل لهم الدولةَ والظفرَ، أو أنه غيرُ قادر على ذلك، فهم قادِحون في قُدرته، أو في حِكمته وحمده، وذلك مِن ظنِّ السَّوْءِ به، ولا ريب أن الربَّ الذي فعل هذا بغيضٌ إلى مَن ظنَّ به ذلك غير محمود عندهم، وكان الواجبُ أن يفعل خلافَ ذلك، لكن رَفَوْا هذا الظنَّ الفاسِدَ بخرق أعظمَ منه، واستجاروا من الرَّمضاءِ بالنار، فقالوا: لم يكن هذا بمشيئة الله، ولا له قدرةٌ على دفعه ونصر أوليائه، فإنه لا يَقْدِرُ على أفعال عباده، ولا هي داخلةٌ تحت قدرته، فظنُّوا به ظَنَّ إخوانهم المجوس والثَّنَوِية بربهم، وكلٌّ مبطل، وكافر، ومبتدِع مقهور مستذل، فهو يظن بربه هذا الظن، وأنه أولى بالنصر والظفر، والعلو من خصومه.

فأكثر الخلق، بل كلهم إلا مَن شاء الله يظنون بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ السَّوْءِ، فإن غالبَ بني آدم يعتقد أنه مبخوسُ الحق، ناقصُ الحظ وأنه يستحق فوقَ ما أعطاهُ اللهُ، ولِسان حاله يقول: ظلمني ربِّي، ومنعني ما أَستحقُّه، ونفسُه تشهدُ عليه بذلك، وهو بلسانه يُنكره ولا يتجاسرُ على التصريح به، ومَن فتَّش نفسَه، وتغلغل في معرفة دفائِنها وطواياها، رأى ذلك فيها كامِنًا كُمونَ النار في الزِّناد، فاقدح زنادَ مَن شئت يُنبئك شَرَارُه عما في زِناده، ولو فتَّشت مَن فتشته، لرأيت عنده تعتُّبًا على القدر وملامة له، واقتراحًا عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقِلٌّ ومستكثِر، وفَتِّشْ نفسَك هل أنت سالم مِن ذلك؟

فَإِنْ تَنجُ مِنْهَا تنجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِيًا

فليعتنِ اللبيبُ الناصحُ لنفسه بهذا الموضعِ، وليتُبْ إلى الله تعالى وليستغفِرْه كلَّ وقت من ظنه بربه ظن السَّوْءِ، وليظنَّ السَّوْءَ بنفسه التي هي مأوى كل سوء، ومنبعُ كل شر، المركَّبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظن السَّوْءِ من أحكم الحاكمين، وأعدلِ العادلين، وأرحمِ الراحمين، الغنيِّ الحميد، الذي له الغنى التام، والحمدُ التام، والحكمةُ التامة، المنزَّهُ عن كل سوءٍ في ذاته وصفاتِهِ، وأفعالِه وأسمائه، فذاتُه لها الكمالُ المطلقُ مِن كل وجه، وصفاتُه كذلك، وأفعالُه كذلك، كُلُّها حِكمة ومصلحة، ورحمة وعدل، وأسماؤه كُلُّها حُسْنَى.

فَـلا تَظْـنُنْ بِرَبِّكَ ظَنَّ سَـوْء فَــإِنَّ اللهَ أَوْلَى بِالجَـــمِيلِ
وَلا تَظْنُنْ بِنَفْسِـكَ قَطُّ خَيْرًا وَكَيْفَ بِظَـالِمٍ جَـانٍ جَهُـولِ
وَقُلْ يَا نَفْسُ مَأْوَى كُلِّ سُوءٍ أَيُرجَى الخَيْرُ مِنْ مَيْتٍ بَخيلِ
وظُنَّ بِنَفْسِكَ السُّوآى تَجِدْهَا كَذَاكَ وخَيْرُهَـا كَالمُسْـتَحِيلِ

وَمَـا بِكَ مِنْ تُقىً فِيهَا وَخَيْرٍ فَتِلْكَ مَوَاهِبُ الرَّبِّ الجَلِيلِ
وَلَيْسَ بِهَـا وَلاَ مِنْهَـا وَلَكِـنْ مِنَ الرَّحْمنِ فَاشْـكُرْ لِلـدَّلِيلِ

والمقصود ما ساقنا إلى هذا الكلام مِن قوله: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾، ثم أخبر عن الكلام الذي صدَر عن ظنهم الباطل، وهو قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾، وقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، فليس مقصودُهم بالكلمةِ الأولى والثانية إثباتَ القدر، ورد الأمرِ كُلِّه إلى الله، ولو كان ذلك مقصودهم بالكلمة الأولى، لما ذُمُّوا عليه، ولما حَسُنَ الردُّ عليه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾، ولا كان مصدرُ هذا الكلام ظَنَّ الجاهلية؛ ولهذا قال غيرُ واحد من المفسِّرين: إن ظنَّهم الباطل ها هنا: هو التكذيب بالقدر، وظنهم أن الأمرَ لو كان إليهم، وكان رسولُ الله ﷺ وأصحابُه تبعًا لهم يسمعُون منهم، لما أصابهم القتلُ، ولكان النصرُ والظفرُ لهم، فأكذبهم اللهُ ﷻ في هذا الظنِّ الباطل الذي هو ظنُّ الجاهلية، وهو الظنُّ المنسوب إلى أهل الجهل الذين يزعمون بعد نفاذِ القضاء والقدر الذي لم يكن بُدٌّ من نفاذه أنهم كانوا قادرين على دفعه، وأن الأمرَ لو كان إليهم، لما نفذ القضاءُ، فأكذَبَهُم اللهُ بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فلا يكون إلا ما سبق به قضاؤه وقدرُه، وجرى به عِلمه وكتابه السابق، وما شاء اللهُ كان ولا بُدَّ، شاءَ الناسُ أم أَبَوْا، وما لم يَشَأ لم يكن، شاءه الناسُ أم لم يَشاؤوه، وما جرى عليكم من الهزيمةِ والقتل، فبأمره الكوني الذي لا سبيلَ إلى دفعه، سواء أكان لكم من الأمر شيء، أو لم يكن لكم، وأنَّكُم لو كنتم في بيوتكم، وقد كُتِبَ القتلُ على بعضكم لخرج الذين كُتِب عليهم القتل من بيوتهم إلى مضاجعهم ولا بُد، سواء أكان لهم من الأمر شيء، أو لم يكن، وهذا مِن أظهر الأشياء إبطالًا لقول القَدَرِيَّةِ النفاة، الذين يُجوِّزون أن يقع ما لا يشاؤُه اللهُ، وأن يشاء ما لا يقع». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢٠٤ - ٢١٣].

٢٨ ـ سنة الابتلاء والتمحيص[(١)]:

يقول ابن القيم: «ثم أخبر سبحانه عن حِكمة أُخرى في هذا التقديرِ، هي ابتلاءُ ما في صدورهم، وهو اختبار ما فيها من الإيمانِ والنفاق، فالمؤمنُ لا يزدادُ بذلك إلا إيمانًا وتسليمًا، والمنافقُ ومَن في قلبه مرضٌ، لا بد أن يظهر ما في قلبه على جوارحه ولسانه.

ثم ذكر حِكمة أُخرى: وهو تمحيصُ ما في قلوب المؤمنين، وهو تخليصهُ وتنقيتُه وتهذيبه، فإن القلوبَ يُخالطها بِغلبات الطبائع، وميل النفوس، وحكمِ العادة، وتزيينِ الشيطانِ، واستيلاءِ الغفلة ما يُضادُّ ما أُودعَ فيها من الإيمانِ والإسلام والبر والتقوى، فلو تُرِكت في عافية دائمة مستمرة، لم تَتخَلَّص من هذه

(١) للتفصيل في هذا الدرس ينظر: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية ـ د/ عبد الكريم زيدان ـ الفصل الرابع ـ سُنَّة الله في الفتنة والابتلاء [قانون الابتلاء]. غريب.

المخالطة، ولم تتمحَّص منه، فاقتضت حِكمةُ العزيزِ أن قَيَّض لها مِن المِحن والبلايا ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده، وإلا خِيف عليه منه الفسادُ والهلاكُ، فكانت نعمتُه سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة، وقتل مَن قُتِل منهم، تُعادِلُ نعمتَه عليهم بنصرهم وتأييدهم وظفرهم بعدوهم، فله عليهم النعمةُ التامةُ في هذا وهذا». [زاد المعاد لابن القيم٣/ ٢١٣].

ويقول الشيخ المدري: «من العبر والدروس في غزوة أحد ذلك الدرس الذي تجده ظاهرًا في جميع فصول هذه الغزوة وأحداثها، ألا وهو الابتلاء، فإن ابتلاء الله تعالى للمؤمنين سنة ماضية وراسخة، فيه من الفوائد والحكم ما لا يحصل بالعافية والأمن، فعلى رغم أن البلاء في هذه الغزوة كان مريرًا قاسيًا، إلا أن الله عاتب بعض من استنكر ذلك فقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[آل عمران]، فمن ظن أن الجنة تحصل له بأبخس الأثمان وأضعف الأعمال فقد أخطأ الحساب؛ إذ لا بد للجنة من مهر يقدمه العبد في هذه الدنيا، به يتميز الأولياء من الأدعياء، فالبلاء يميز الصادق من الكاذب والمؤمن من المنافق، والبلاء يكشف عن معادن الرجال، كما قال الأول:

جَزَى اللهُ الشَّدَائِدَ كُلَّ خَيْرٍ عَرَفْتُ بِهَا عَدُوِّي مِنْ صَدِيقِي

فإن الله لما ابتلى المسلمين بهذه النازلة أبدى المنافقون رؤوسهم، وتكلموا بما كانوا يكتمون، وظهرت مخبأتهم، وعاد تلويحهم تصريحًا، وانقسم الناس في هذه الغزوة إلى كافر ومؤمن ومنافق، وعرف المؤمنون أن لهم عدوًّا في أنفسهم، فماز الله بذلك الخبيث من الطيب، قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

فعرف المؤمنون في هذه الغزوة ضعفهم، وبها عرفوا أعداءهم، وهذبهم بها، ومحص قلوبهم، وجعلها سببًا لبلوغ منازل ودرجات قضى في سابق حكمه أنها لهم، قصرت عنها أعمالهم فاتخذ منهم شهداء كتب لهم أعلى المنازل ورفعهم أعلى الدرجات.

كما أن الله سبحانه وتعالى هيأ بما حدث في هذه الغزوة من البغي والعدوان على أولياء الله تعالى وأحبابه وأصفيائه، هيأ بذلك أسباب محق أعدائه؛ فإن الله إذا أراد أن يهلك أعداءه قيض لهم الأسباب التي يستحقون بها الهلاك والمحق، ومن أعظم هذه الأسباب بعد الكفر بالله بغيهم وطغيانهم ومبالغتهم في أذى أوليائه، وتفننهم في محاربتهم وقتالهم والتسلط عليهم، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ» [البخاري في الرقاق (٦٠٢١)]، فإذا عتا أعداء الله على أوليائه وحزبه فإن ذلك من أمارات وعلامات قرب محق الله لهم، قال الله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾[آل عمران].

وما تشهده الأمة اليوم من تسلط الكفار وأشياعهم على حزب الله وأوليائه ما هو إلا إحدى علامات قرب محق الله لهؤلاء المعتدين. فالحمد لله الحكيم العليم الخبير.

وعلى ورثة الأنبياء من أهل العلم والدعوة وأهل الخير والصحوة أن يتقوا الله ويصبروا؛ فإن أجل الله قريب، وعليهم أن لا يضجروا إذا أصابهم أذى أو نزل بهم مكروه؛ فإن الله قد قال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾[المجادلة]، وقد صدق القائل:

لعَلَّ عَتْبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقبُهُ وَرُبَّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِالْعِلَلِ

والابتلاء مهما طالت مدته وامتد وقته واشتدت كربته وتوالت أحداثه وكثرت ضحاياه فإن عاقبته أن يرتفع وينكشف فإنه:

مَهْمَا دَجَا اللَّيْلُ فَالتَّارِيخُ أَخْبَرَنَا أَنَّ النَّهَارَ بِأَحْشَاءِ الدُّجَى يَثِبُ

وينبغي لأولياء الله أن لا يهنوا ولا يذلوا لما نزل بهم من كرب أو حل بهم من ضيم؛ فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، لا يرفعها انكسار عسكري ولا يزيلها ضعفه، بل الأمر كما قال الله تعالى لأوليائه بعد انقضاء هذه المعركة: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران]، فإن ما أصابهم إنما هو في ذات الله تعالى، فعليهم أن يتجلدوا لأعدائهم والشامتين بهم، كما قيل:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ

وعلى أولياء الله أن يعلموا أنه إذا كان البلاء يصيب الرسل ومن معهم مع صحة إيمانهم وصدق بذلهم وعظيم جاههم عند الله تعالى فإصابته لمن دونهم أولى وأحرى». [غزوة أحد للمدري ٨٦-٩٠].

[ينظر للتفصيل في سنة الابتلاء والتمحيص من خلال غزوة أحد : دراسة قرآنية لغزوة أُحُد للمجالي ص ٢٦١-٢٧٨].

٢٩ ـ الإنسان مخير في أعماله:

يقول ابن القيم: «ثم أخبر ﷻ عن تولِّي مَنْ تَولَّى من المؤمنين الصادقين في ذلك اليوم، وأنه بسبب كسبهم وذنوبهم، فاسْتَزَلَّهُمُ الشيطان بتلك الأعمال حتى تولَّوْا، فكانت أعمالهم جندًا عليهم، ازداد بها عدوُّهم قوة، فإن الأعمال جند للعبد وجندٌ عليه، ولا بُدَّ فللعبد كلَّ وقت سَرِيَّةٌ مِن نفسه تَهْزِمُه، أو تنصره، فهو يمُدُّ عدوَّه بأعماله من حيث يظن أنه يُقاتله بها، ويبعث إليه سرية تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه، فأعمالُ العبد تسوقُهُ قسرًا إلى مقتضاها مِن الخير والشر، والعبدُ لا يشعر أو يشعر ويتعامى، ففرارُ الإنسان من عدوه، وهو يُطيقه إنما هو بجُند مِن عمله، بعثه له الشيطان واستزلَّه به.

ثم أخبر سبحانه: أنه عفا عنهم؛ لأن هذا الفرارَ لم يكن عن نفاق ولا شكٍّ، وإنما كان عارضًا، عفا الله عنه، فعادت شجاعةُ الإيمانِ وثباتُه إلى مركزها ونصابِها.

ثم كرَّر عليهم سُبحانه: أن هذا الذي أصابهم إنما أُتوا فيه مِن قِبَل أنفسهم، وَبِسبب أعمالهم، فقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران]، وذكر هذا بعينه فيما هو أعمُّ من ذلك في السور المكِّية فقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى]، وقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء]، فالحسنة والسيئة ها هنا: النعمة والمصيبةُ، فالنعمةُ مِن الله مَنَّ بها عليك، والمصيبةُ إنما نشأت مِن قِبَل نفسِك وعملِك، فالأول فضلُه، والثاني عدلُه، والعبد يتقلَّب بين فضلِه وعدله، جارٍ عليه فضلُهُ، ماضٍ فيه حكمه، عدلٌ فيه قضاؤه». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢١٣-٢١٤].

٣٠ ـ تعزية الله لنبيه وأوليائه:

يقول ابن القيم: «ثم عزَّى نبيه وأولياءه عمن قُتل منهم في سبيله أحسنَ تعزية، وألطفَها وأدعَاها إلى الرضا بما قضاه لها، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران]، فجمع لهم إلى الحياة الدائمةِ، منزلةَ القُربِ منه، وأنهم عنده، وجريان الرزق المستمر عليهم، وفرحَهم بما آتاهم من فضله، وهو فوق الرضا، بل هو كمال الرضا، واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم يَتمُّ سُرورُهم ونعيمُهم، واستبشارهم بما يُجدِّدُ لهم كُلَّ وقت مِن نعمته وكرامته.

وذَكَّرهم سبحانه في أثناء هذه المحنة بما هو مِن أعظمِ مننه ونعمه عليهم التي إن قابلوا بها كُلَّ محنة تنالهم وبلية، تلاشت في جنب هذه المنة والنعمة، ولم يبق لها أثر البتة، وهي مِنَّته عليهم بإرسال رسولٍ من أنفسهم إليهم، يتلُو عليهم آياتِه، ويُزكيهم، ويُعلمهم الكتابَ والحِكمة، ويُنقذُهم مِن الضلال الذي كانُوا فيه قبل إرساله إلى الهدى، ومِن الشقاء إلى الفلاح، ومن الظُّلمة إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، فكُلُّ بليةٍ ومحنةٍ تنالُ العبد بعد حصول هذا الخيرِ العظيم له أمرٌ يسيرٌ جدًّا في جنب الخير الكثير، كما ينالُ الناس بأذى المطرِ في جنب ما يحصل لهم به من الخير، فأعلمهم أن سببَ المُصيبة من عند أنفسهم ليحذروا، وأنها بقضائه وقدره ليوحِّدوا ويتَّكِلُوا، ولا يخافوا غيره، وأخبرهم بما لهم فيها مِن الحكم لئلا يتهموه في قضائه وقدره، وليتعرَّف إليهم بأنواع أسمائه وصفاته، وسلَّاهم بما أعطاهم مما هو أجلُّ قدرًا، وأعظمُ خطرًا مما فاتهم من النصر والغنيمة، وعزَّاهم عن قتلاهم بما نالُوه من ثوابه وكرامته، لينافِسوهم فيه، ولا يحزنُوا عليهم، فله الحمدُ كما هو أهلُه، وكما ينبغي لكرم وجهه، وعزِّ جلاله». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢١٥ -٢١٦].

٣١ ـ الإسلام يجب ما قبله:

يقول الشيخ عرجون: «وفي هذه القصة ـ قصة أُحُد ـ معالم مضيئة لمنهج رسالة الإسلام، مما يدل على أن محن الابتلاء في هذه الرسالة الخالدة محفوفة بالمنح الربانية التي تدفعها في مسيرتها إلى أهدافها الحميدة وغاياتها النبيلة.

فإذا جاء في القصة من رواية ابن إسحاق أن بعض الصحابة لما رأوا وحشيًّا قالوا: هذا وحشي، فيقول النبي ﷺ ليشعرهم أنه لا بأس عليه إذْ جاء مسلمًا: «**دَعُوهُ، فَلِإِسْلَامِ رَجُلٍ وَاحِدٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَتْلِ أَلْفِ رَجُلٍ كَافِرٍ**». [الروض الأنف للسهيلي تح الوكيل ٥/ ٤٦١، وسبل الهدى للصالحي ٤/ ٢١٧].

ومعنى ذلك أن النبي ﷺ لا يريد من أصحابه أن يهيجوا وحشيًّا ولا أن يزعجوه وقد جاء مسلمًا، والإسلام يجبُّ ما قبله من كفر مهما كانت آثاره وجرائره.

وفي هذا دليل على أن رسالة الإسلام إنما تستهدف الهداية والعدل والرحمة والإخاء، ولا يقيم وزنًا لغير الحق، ولا ترضى عن أحقاد الثأر الجاهلية، والله تعالى يقول لنبيه ﷺ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، ويقول له ممتنًّا برسالته على العالمين: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[الأنبياء]، تَجْمَعُ الناسَ في ظلال الهدى والتعاون على البر والتقوى ولم نرسلك معنتًا، ولا مثيرًا لأحقاد الضغن بين أفراد وجماعات المجتمع الإنساني.

وإذا جاء في القصة من رواية الطبراني قوله ﷺ لوحشي: «**اخْرُجْ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَا كُنْتَ تَصُدُّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ**»، كان ذلك من قبيل التوجيه الإرشادي إلى مكفِّرات ما سلف من الكفر ومحادة الله تعالى ورسوله، وذكر القتال في سبيل الله بيان للأمر الأنسب في التكفير، وفيه حضٌّ من النبي ﷺ لإعلاء راية الجهاد، ولعل مخرج وحشي إلى اليمامة وقتله مسيلمة الكذاب كان أثرًا من آثار توجيه النبي ﷺ إلى أفضل ما يمحو الخطايا، ويحتُّ الذنوب، ويطهر من الآثام.

وقد أدرك وحشي ذلك فقال حين قتل مسيلمة الكذاب: قتلت خير الناس ـ يعني سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ﷺ ـ وقتلت شر الناس ـ يعني أخبث الفجَّار من الكذابين، مسيلمة الحنفي صاحب اليمامة، وقد صدق وحشي في هذا القول». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٣/ ٦٠٢-٦٠٣].

ويقول د/ الحميدي: «وقد قَبِلَ منه النبي ﷺ إسلامه لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، ولم يصل إليه من رسول الله ﷺ ولا مجرد عتاب، وهذا منتهى ما يتصوره الإنسان من السماحة والعفو والإحسان».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٥/ ١٤٠].